رواية

فرنسواز ساغان

هل تحبّين برامس...؟

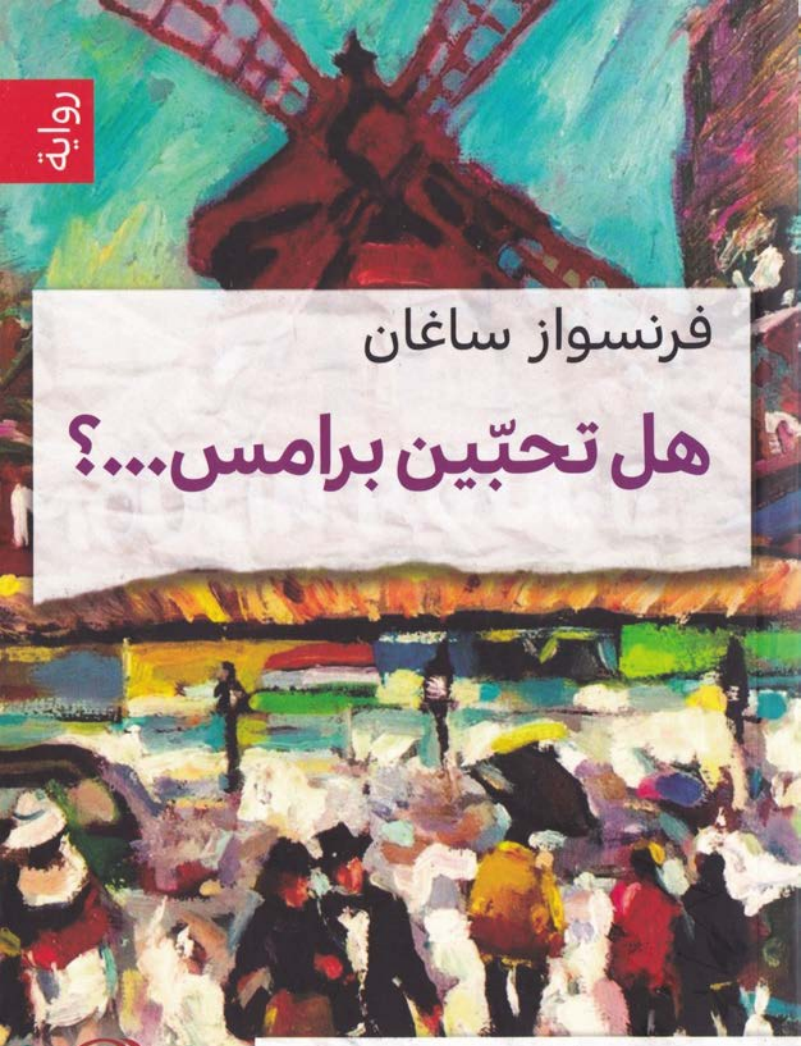

ترجمة: محمد فطومي

#921

مكتبة

مكتبة | سُر مَن قرأ

هل تحبّين برامس...

روايـــة

اسم المؤلف: فرنسواز ساغان
Author: **Françoise Sagan**

عنوان الكتاب: هل تحبّين برامس...
Title: **Aimez-vous Brahms?**

ترجمة: محمد فطومي
Translated by: **Muhammad Fatumi**

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
Cover Designed by: **Majed Al–Majedy**

الناشر: دار المدى
P.C.: **Al–Mada**

الطبعة الأولى: **2019**
First Edition: **2019**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Éditions Julliard, Paris, 1969

للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com - email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع لبون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

مكتبة ١٦ ٨ ٢٠٢٢
t.me/t_pdf

فرنسواز ساغان

مكتبة | سُر مَن قرأ

هل تحبّين برامس...

#921

ترجمة : محمد فطومي

إلى چي

مكتبة
t.me/t_pdf

مقدّمة المُترجم

لا، ليس قليلاً أن يقرأ المرء ثلاث روايات في السّنة فحسب، شرطَ أن تكون الرّوايات لفرنسواز ساغان. إنّها تحتجزك داخل الحكاية تاركة لك المجال خصبا لتبدي رأيك فتنصف وتأسف وتُضيف وتؤوّل كما تشاء.

مفارقة أخرى، خصمان آخران، حربٌ يخوضها الأبطال ضدّ أنفسهم، ضدّ ما هم عليه. خائفين، متنازلين عن الحياة مقابل الاحتماء منها. رواية تشدّك حتّى النّهاية، مُشوّقة وحافلة بالأفكار والأسئلة: هل للحرّية من وجود؟ لِمَ على الحبّ دائماً أن يتّخذ من الحرّية خصمه اللّدود؟ من هو هذا الآخر الذي يكون المرض تارة والتّشخيص تارة أخرى؟ أليس قاسياً أن تكبر امرأة في السنّ؟ فلا يعود من حقّها -كما لو أنّها أصيبت بإعاقة- أن تختار السّعادة التي يمنحها الحبّ بل التي يمنحها الاختباء في المألوف؟ كما حدث لـ «پول» التي هربت من سجن «روجي» لكنّها سرعان ما اكتشفت أنّها بذلك قد ضحّت بحياتها التي تعرفها. وروجي المُحاصَرِ بحرّيته، المقيّد على الدّوام بضرورة ممارستها والتّذكير بها، ستمنحه الكاتبة القدر الذي يرضيه منها، سيفعل ما يشاء، متى شاء، لن يحول دون حرّية أحد، لن يفرض نفسه، لن يطالب أحداً بشيء. لن يعِدَ، لن يعاهد. سيحتاج فقط إلى پول، ستهزمه حاجته إليها. سنرى كأنّنا نشاهدُ فِلما كيف أنّ ما ذكرناه كان منذ البدء أوصاف الرّهينة. أمّا سيمون فهو الشابّ الوسيم الذي كان لابدّ أن يظهر في حياة پول كي تثور مرّة معه على روجي ومرّة على نفسها منه.

شخصيّات هذه الرّواية يميلون إلى العزلة، خائفون، محاصرون بحرّيتهم من كلّ الجهات. يقترفون الصّواب، ثمّ يندمون كما يندم من يقوم بخطأ. كلّ منهم لديه أشياء يهرب منها، ستظلّ أسباب الهروب قائمة وأسباب العودة قائمة أيضاً، إنّها الدوّامة التي سيُقذفون داخلها والتي ستجعل من الرّواية عملاً دراميّاً وفلسفيّاً، لا يحتاج منك أن تعيد قراءته، لأنّه ببساطة سيعيد تكرار نفسِه في حلقة لا تنتهي: الهروب من سجن الآخر، فالهروب من الحرّية وهكذا دواليك.

هي بعض من أفكار علقت في ذهني بعد انتهائي من ترجمة الرّواية وما تطلّبه الأمر من قراءات عدّة، قد تبدو للقارئ مُشوّشة لكنّي تعمّدت الإسراع بتدوينها كي لا تفقد عفويّتها، ولأجل أن لا أدخل في التفاصيل التي أترك مهمّة سردها للكتاب. أخشى أنّي سأظلّ أفكّر طويلاً في حرّية أن يكون المرء ضحيّة كما اختارت پول، وحرّية أن يكون المرء سجنا كما كان دائماً روجي: الرّجل الحرّ ، الذي لا يعرف غير ذلك والذي لن يفهم أبداً أن في إمكانه القيام بما يريد مادام قد تحوّل إلى إنسان ذكرى.

لكن ما حيّرني فعلاً في هذه الرّواية هو العدد عشرة.. أنقل الطّرافة والحيرة فقط، متمنّياً للكاتب حظّاً أوفر من حظّي في التعلّم من ساغان، وللقارئ مطالعة رائقة، وحظّاً أوفر من حظّي في فكّ رموز الرّواية وفي العثور على كنوز فنّية أكثر إمتاعاً وعمقاً.

محمد فطومي

الفصل الأوّل

تأمّلت «پول» وجهها في المرآة مُتفحّصة الخيبات التي تراكمت عليه طيلة تسعٍ وثلاثين سنة، واحدة فواحدة، في غير انفعال كما جرت العادة في مثل هذه المواقف. بل بهدوءٍ بالكاد اتّسم بالاهتمام، كما لو كانت البشرة الدّافئة التي راحت أصابعها تضغط عليها برفق كي تُسوِّيَ تجاعيدها، لتُلغيَ عنها ظلّها، هي لشخصٍ آخر غيرها، لپولٍ أخرى مشغولة حدّ الشّغف بجمالها، رافضة فكرة الانتقال من طور الشابّة الرّاشدة إلى طور المرأة الشابّة: امرأة بالكاد تعرفها. وقفت أمام هذه المرآة لقتل الوقت و - جعلتها هذه الفكرة تبتسم - اكتشفت أنّه هو من يقتلها بنار خافتة، برفق، مواجهاً مظهراً تعرف جيّداً أنّه محلّ إعجاب. كان على «روجي» المجيء عند التّاسعة؛ كانت السّاعة السّابعة؛ أمامها الوقت بأسره. الوقت لتستلقِيَ على سريرها، مغمضة العينين، دون التّفكير في شيء، للرّاحة، للاسترخاء. لكن ما الأمر المُثير الذي فكّرت فيه خلال النّهار كي تحظى بالرّاحة في المساء؟ كانت تعرف جيّداً هذا الخمول القلِقَ الذي يُجبرها على الانتقال من غرفة إلى أخرى، من نافذة إلى أخرى. إنّه القلق الذي كان ينتابها في صباها، أيّام المطر.

دخلت الحمّام، مالت لتلمس الماء الذي في الحوض، وفجأة ذكّرتها تلك الحركة بحركة أخرى... كان ذلك قبل خمس عشرة سنة تقريباً. كانت مع «مارك»، كانا يقضيان العطلة معاً للسّنة الثّانية على التّوالي،

وكانت بعدُ قد بدأت تشعر بأنّ ذلك لا يُمكن أن يدوم أكثر. كانا على متن قارب «مارك» الشّراعي، كانت الأشرعة تخفق في مواجهة الرّيح كقلب مُضطرب، وكان عُمُرها خمساً وعشرين سنة. وغمرها السّرور بغتة. أحسّت بالرّضا عن حياتها، عن العالم، وفهمت بشكل خاطف أنّ كلّ شيء كان جيّداً. ولتُخفِيَ وجهها انحنت على الحافة المُسطّحة، محاولة الغوص بيدها في الماء الهارب. مال القارب الصّغير؛ ألقى عليها «مارك» نظرات متثاقلة وحده يعرف سرّها. فأخذت السّخرية مكان السّعادة. طبعاً، كانت سعيدة بعد ذلك، مع آخرين أو بفضلهم، لكن أبداً على ذلك النّحو الشّامل الذي لا شيء قد يحلّ محلّه. وبدت هذه الذّكرى كوعد لم يتحقّق.

سيأتي روجي، وستشرح له، ستُحاول أن تشرح له. سيقول: «نعم، بالتّأكيد» بذاك النّوع من القبول الذي يبدو عليه كلّما اكتشف غشّ الحياة. بحماس حقيقيّ كان يُعلّق على عبث الوجود وعناد البشر إزاء إطالة حكمه. إلّا أنّ ذلك كان فقط يقتصر على حيويّة لا حدود لها، شهيّة قويّة، وفي العمق كان اكتفاءً كبيراً بأن يكون نفسه، لا يحدّه سوى خلوده إلى النّوم. كان إذاً، ينام فوراً، يده فوق قلبه، حريصاً على حياته نائماً ومستيقظاً. لا، لا يُمكنها أن تعترف لروجي بأنّها مُتعَبَة، بأنّها لم تعد تحتمل هذه الحُرّية التي تسود بينهما كقانون. تلك الحرّية التي لا تخدم غيره والتي لا تمثّل بالنّسبة إليها، أحياناً، سوى الوحدة؛ لا يمكنها أن تقول له بأنّها تشعر بنفسها أحياناً كتلك الإناث القاسيات المتغطرسات اللاّتي كان يبغضهنّ. فجأة بدت لها شقّتها صحراء رهيبة وعديمة النّفع.

عند التّاسعة، رنّ روجي ولدى رؤيته يبتسم وهي تفتح له، ضخماً، أمام الباب، قالت مرّة أخرى في نفسها بخنوع بأنّه نصيبها وأنّها تحبّه. أخذها بين ذراعيه:

- كم أنتِ أنيقة... اشتقتُ إليكِ. أنت وحدكِ؟

- نعم، ادخُل.

«أنتِ وحدك...؟» كيف كان سيتصرّف لو أنّها أجابته: «لا، لقد أتيتَ في وقت غير مناسب؟». لكنّها لم تقل ذلك منذ ستّة أعوام.

لم يكن أبداً ينسى طرح هذا السّؤال، والاعتذار عن الإزعاج بمناورة، (لا يمكنه حتّى أن يستوعب بأنّها وحيدة وتعيسة بسببه). ابتسمت له. فتح القارورة، ملأ كأسيْن، جلس:

«تعاليْ بجانبي، پول. أين تريدين أن نتناول العشاء؟»

جلست بجانبه. كانت سحنته منهكة، هو أيضاً. أخذ يدها وضمّها.

«أنا أسبح في التّعقيدات، قال. الأعمال حمقاء، النّاس أغبياء ومترهّلون بشكل لا يُصدَّق. آه! تعلمين، العيش في الرّيف...»

ضحكت:

«ستفتقد جادة «برسي» Bercy ومستودعاتك وشاحناتك ولياليك الباريسيّة الطّويلة...»

ابتسم في آخر جملة، تمطّى وتهاوى على الأريكة. لم تلتفت إليه. بل ظلّت تنظر إلى يده التي تركها فوق يدها، يد كبيرة مفتوحة. كانت تعرف عنه كلّ شيء. شعره السّميك المزروع حتّى الأسفل، التّعبير الدّقيق لعينيه البارزتين قليلاً، طيّات فمه. كانت تحفظه عن ظهر قلب.

«بالمناسبة، قال، على ذكر لَيالِيَّ المجنونة، أمسكت بي الشّرطة، ذاك المساء، كصبيّ صغير. اشتبكتُ مع أحدهم. بعد الأربعين... في مقرّ العمل... تتخيّلين...

- لماذا اشتبكتما؟

- لا أذكر. لكنّه كان فظّاً.

وكما لو كانت هذه الذّكرى الجسديّة قد أنعشَته، نهض بوثبة واحدة.

«أعلـم أين نحن ماضون، قال. إلى «البيمونتيـاس»(*) Piemontias ثمّ سنذهب إلى الرّقص. هذا إذا كنتِ لا تزالين تعتبرينني راقصاً جيّداً.

- أنتَ تتنزّه ولا ترقص، قالت پول.

- هذا ليس رأي الجميع.

- إذا كنتَ تقصد التّعيسات اللّاتي تُخضعهنّ إلى نفوذك، قالت پول، فربّما اختلف الأمر.

انفجرا ضاحكيْن. كانت دائماً مغامرات روجي الصّغيرة موضوع تندّر بينهما. اتّكأت پول لحظة على الجدار قبل أن تضع يدها على الدّرابزين. كانت مفرغة من الشّجاعة.

في سيّارة روجي، شغّلت الرّاديو بيد متردّدة. وتحت الضّوء الخافت للوحـة القيادة لمحت يدهـا، طويلة مُعتَنى بها جيّـداً، على ظهرها بدأت العـروقُ تمتـدّ نحـو الأصابع متداخلة مُشـكّلةً رسـماً عشـوائيّاً. «صورة لحياتـي»، فكّرت، ثمّ تداركت قائلة في نفسـها إنّها صورة خاطئة. كانت مهنتها تروق لها وكان ماضيها بلا ندم تقريباً، وكان لديها أصدقاء رائعون وعلاقة دائمة. استدارت نحو روجي:

- كم مرّة قمتُ بهذه الحركة: أن أشـغّل راديو السيّارة وأنا في طريقي إلى العشاء معك؟

- لا أدري.

رمقهـا بنظـرة مائلة. رغم المدّة ورغم ثقته في حبّهـا له، إلّا أنّه ما زال حسّاسـاً إزاء مزاجهـا وكان دائمـاً بالمرصـاد. كما فـي أوّل علاقتهما... تابعـت: «أتَذكُـر؟» وقرّر في ذلك المسـاء أن يولي اهتمامـاً مُضاعفاً إلى جانبها العاطفي.

---

*- البيمونتياس (Piemontias): مقاطعة شمال فرنسا.

- أتبدو لك الأمور مُكَرّرة؟

- لا، أحياناً أشعر بأنّي المُكَرّرة.

مدّ لها يده، أخذتها بين كفّيها. كان يقود بسرعة. وكانت الطّرقات المألوفة تتعاقب خلف سيّارته، كانت باريس ترزخ تحت مطر خريفيّ. انخرط في الضّحك. «أتساءل لماذا أقود بهذه السّرعة؟ أخشى أنّي أتوهّم الشّباب».

لم تُجِب. منذ عرفته وهو يُحاول أن يبدو في مظهر الشابّ الصّغير، لقد كان دائماً «الشابّ الصّغير». فقط منذ فترة قصيرة بات يعلن لها عن ذلك. وكان هذا الاعتراف يخيفها أكثر من أيّ شيء آخر.

إنّه الخوف المُتصاعد من لعب دور كاتمة السرّ التي أخذت تنزلق رويداً بسبب التفهّم والتّعاطف.

كانت تُمثّل حياته، كان ينساها وكانت تساعده بحياءٍ على نسيانها، بحياءٍ نبيل.

تناولا العشاء في جوّ لطيف، تحدّثا خلاله عن المتاعب التي تعانيها شركات النّقل التي كان روجي يملك منها واحدة، ثمّ روت له طرفتين أو ثلاثاً متعلّقة بالمحلّات التي تشتغل على تزويقها. كانت هناك زبونة تريد منها أن تعتني لها بمنزلها، أمريكيّة ثريّة جدّاً.

«ڤان دان بيش؟ قال روجي. هذا يذكّرني بأمر. آه! نعم...»

خفقت برموشها. كان يبدي مظهر غبطة عندما تُثار أمامه ذكريات مُعيّنة.

«كنتُ آنذاك أعرفها، قبل الحرب، على ما أظنّ. كانت دائماً في بيت «فلورونس».

- نعم، نعم، قال على نحو حالم، كان اسمُها، إيه...»

ضايقها وانتابتها رغبة مفاجئة في أن تغرز فرشاتها في كفّ يده.

«لا يهمّني اسمُها، قالت. أعتقد أنّها كانت تملك مالاً كثيراً ولم يكن لها الرّغبة في شيء. ما أحتاج إليه تحديداً كي أعيش.

- كم عُمُرها الآن؟

«حول الستّين»، قالت ببرود. وانفجرت ضاحكة وهي ترى التّعبير الذي أبداه روجي. انحنى على الطّاولة وحدّق فيها:

«أنتِ حقّاً فظيعة، تفعلين أيّ شيء كي أُصابَ بالكآبة، مع ذلك أحبُّك، ما كان يجب أن أفعل»

كان يروق له أن يلعب دور الضحيّة.

زفرت.

- مهما يكن من أمر، غداً أذهب إلى شارع «كليبير». حاجتي إلى المال أصبحت مُقلِقة. وأنت أيضاً، أضافت في اللّحظة التي رفع فيها يده.

- لنُغيّرِ الموضوع، قال. لنرقُص قليلاً.

جلسا إلى طاولة في العلبة اللّيليّة إلى طاولة صغيرة بعيداً عن المرقص وراحا يراقبان الوجوه دون كلمة. أراحت يدها فوق يده، كانت تُحسُّ بالأمان كما لو أنّها معتادة عليه تماماً. لم يكن في وسعها أن تبذل جهداً للتعرّف على غيره، كانت تنهل من ذاك اليقين سعادة حزينة. رقصا. كان يمسك بها بقوّة، منتقليْنِ من طرف المرقص إلى الطّرف الآخر دون إيقاع. كان يبدو فخوراً بنفسِه وكانت هي تبدو سعيدة.

أخيراً عادا بالسيّارة، نزل وأخذها بين ذراعيه أمام الـ«پورش» Porche.

«أتركك تنامين عزيزتي. نلتقي غداً»

قبّلها برقّة ورحل. أومأت بيدها. أصبح يتركها تنام بوتيرة أكبر فأكبر.

كانت شقّتها فارغة ووضّبت أغراضها بحرصٍ قبل أن تجلس على السّرير، العينان مغرورقتان بالدّمع. كانت وحيدة في تلك اللّيلة أيضاً، وبدت لها حياتها سلسلة ليالٍ من الوحدة في ملاءات لا تتجعّدُ أبداً، وسط هدوءٍ كالذي يُصاحب مرضاً طويلاً.

في الفراش، فَرَدَت ذراعها فطريّاً كما لو كانت هناك خاصرة دافئة الملمس، تنفّست بصمت كأنّها تخشى أن تعكّر نوم أحد ما. رجلاً أو طفلاً. أيّاً كان، شخصاً يحتاج إلى حرارتها كي تنام ويستيقظ. لكن لا أحد يحتاج إليها حقّاً. ربّما روجي في بعض الأحيان... لكن ليس تماماً. ليس بهذا الشّكل، ليس شغفاً لكن جسديّاً بطريقة ما حدث أن أحسّت بذلك. لاكت وحدتها في مرارة، ببطء.

ركن روجي سيّارته أمام بيته وسار على قدميه فترة طويلة. كان يتنفّس بعمق، ويُوسّع خطواته رُويداً. أحسّ بالرّضا. كان يشعر بالرّضا كلّما رأى پول، لا يُحبّ غيرها.

فقط في ذلك المساء، وهما يفترقان، شعُرَ بشجنها ولم يدرِ ماذا يقول. كانت بشكل ضبابيٍّ تلمِّحُ إلى أمر لا يُمكنه أن يمنحها إيّاه. ولم ينجح أبداً في منحه لأيٍّ كان. دون شكٍّ كان في وسعِه دائماً أن يظلَّ معها ويُمارس معها الحُبّ، إنّه الشّيء الوحيد الذي يُمكنه أن يُطمئن امرأة. لكنّه كان يرغب في المشي، في التجوّل بين الشّوارع، في الطّواف، كانت لديه رغبة في الإنصات إلى خطواته على الرّصيف، أن يحرُس هذه المدينة التي يعرفُها جيّداً ورُبّما باغت موقفاً ليليّاً. اتّجه نحو الأضواء عند أطراف الجادة.

مكتبة
t.me/t_pdf

الفصل الثاني

استيقظت متأخّراً بآلام في أطرافها، وخرجت مُسرعة. عليها أن تمرّ بالسيّدة الأمريكية قبل أن تلتحق بمكتبها. عند العاشرة، دخلت صالوناً نصف فارغ، في شارع «كليبير» ولأنّ المالكة كانت لا تزالُ نائمة فقد وجدت المجال سانحاً لتُعيد مِكياجها براحة أمام المرآة. في المرآة لاح لها «سيمون». كان في ثوب نوم كبير، مشوّش الشّعر، ووسيماً بشكل ملحوظ. «ليس صنفي»، فكّرت دون التفاتة وابتسمت لحظة. كان نحيفاً، أشقَرَ، بعينين صافيتين ومُهَذّباً أكثر من اللّزوم.

لم يلحظ وجودها في البداية واتّجه نحو النّافذة مُدندِنا. سعَلَت فاستدار ناحيتها، كأنّه ضُبِطَ مُتلبّساً بخطأ. فكّرت لحظة في أنّه على الأرجح آخر نزوات السيّدة «ڤان دان بيش».

- المعذرة، قال، لم أنتبه إليك. أنا سيمون ڤان دان بيش.

- طلبت منّي والدتك المرور لأهتمّ بالشقّة. أخشى أنّي أيقظت الجميع.

- على أيِّ حال، على المرء دائماً أن يستيقظ، باكراً أم مُتأخّراً، قال بحزن. وفكّرت بسأم بأنّه غالباً من نوع الشّباب الذين يشتكون كثيراً.

«اجلسي، إذاً»، قال، واتّخذ مكاناً قبالتها بجدّية وهو يحزم ثوبه.

كان الحياء بادياً عليه، وغمرت پول موجة استلطاف ناحيته. على كلّ حال يبدو أنّه غيرُ واعٍ بجسمِه: جسمُه الذي لا أمل في أن يثير الإعجاب.

«تمطرُ دائماً؟»

ضحكت. فكّرت في تعليق روجي المُحتَمَل، لو رآها في زِيِّ سيّدة أعمال ترهب شابّاً وسيماً جدّاً في ثوب نوم عند العاشرة صباحاً.

«نعم، نعم، إنّها تُمطر»، قالت بانشراح.

رفع عينَيْه.

«ماذا تريدين أن أقول لك، قال، أنا لا أعرفك، لو كنتُ أعرفكِ لكنتُ قلتُ بأنّي سعيد برؤيتك ثانية»

رمقَته، مُرتبكة.

- لماذا؟

- هكذا.

أشاح بوجهه وبدا لها أنّه يزداد غرابة.

- يجب أن يكون هذا البيت مؤثّثاً قليلاً، قالت، أين تجلسون حين يفوق عددكم الثّلاثة؟

- لا أعلم، قال، آتي إلى هنا في مناسبات نادِرة. فأنا أعمل طيلة اليوم وعند عودتي أكون مُتعَباً جدّاً فأنام.

خابت جميع أفكار پول حول الشابّ. لم يكن مشغولاً فقط بجسمه بل كان يعمل طيلة النّهار. كادت تسأله: «ماذا تفعل؟» لكنّها عدلت عن ذلك. بدا لها فُضولاً غير طبيعيّ.

- أنا محامٍ، مُتَربّص، قال سيمون. أعمل كثيراً، أنام عند منتصف اللّيل وأستيقظ عند الفجر...

- إنّها العاشرة، قالت پول.

- «زبوني الكبير، أُعدِم بالمِقصَلة هذا الصّباح»، قال بصوت متخاذل. ارتجَفَت وحافظ هو على عينيه منخفضتين.

«إلَهي، قالت... ومات؟»

انفجرا ضاحِكَيْن. نهض وتناول سيجارة من فوق الموقد.

«لا، في الحقيقة، أنا لا أعمل كثيراً، ليس كفاية. بينما أنتِ، استيقظتِ عند العاشرة صباحاً، على استعداد لتأثيث هذا الصّالون الفظيع. أنتِ تُجبرينني على العمل»

ذرع الغرفة طولاً وعرضاً، مُتحمِّساً.

«اهدأ»، قالت پول.

أحسّت بأنّ مزاجها رائق، بأنّها متفتّحة.

بدأت تخشى من قدوم أمّ سيمون.

«ذاهب لارتداء ملابِسي، قال سيمون، أستَغرق دقيقة، انتظريني»

قَضَتْ ساعة مع السيّدة ڤان دان بيش، التي كان مزاجُها سيّئاً ومذعورة في الصّباح بشكل ملحوظ، ناقَشَت معها مشاريع مُعقّدة ونزلت السُلَّم، مُغتبطة لأنّها قامت بإنجاز مادّي جيّد، ونَسيت سيمون تماماً. في الخارج كانت لا تزالُ تُمطِر. رفعت يدها لتوقف سيّارة تاكسي. إلّا أنّ سيّارة قريبة توقّفت أمامها.

«أيُمكنني أن أُقِلَّكِ؟ أنا في طريقي إلى المكتب»

كان يترقّب منذ ساعة، لكن سِحنته الماكرة جَعَلَت پول تضعف.

صعدت بصعوبة كبيرة وانثنت وابتسمت:

- أنزلُ في شارع «ماتينيون».

- أتممتِ كلّ شيءٍ مع أمّي؟

- جيّد، سيكون في إمكانكَ أن تُريح تعبَك فوق كَنَبة ناعمة. ألا أؤخّرُك؟ لقد تجاوزت الحادية عشرة. سيكون أمامنا متّسع لإعدام النّاس جميعاً.

- لَدَيّ الوقت، قال بكآبة.

- لستُ أسخرُ منك، تداركَتْ بلطف؛ مزاجي رائق لأنّي أعاني متاعب ماليّة، وها هي أمُّك تنتشلني منها. ستختفي متاعبي.

- اجعليها تدفعُ أوّلاً، فهي بخيلة جدّاً.

- لا نتحدّث هكذا عن والدينا، قالت پول.

- ليس لديّ اثنتا عشرة سنة!

- كم؟

- خمس وعشرون، وأنتِ؟

- تسع وثلاثون.

ندَّ عنه تصفير غير مؤدّب إلى حدّ كاد يُغضِبُها، ثمّ انفَجَرَت ضاحكة.

- لِمَ تضحكين؟

- تصفير الإعجاب الذي ندّ عنك.

- إنّه تصفير إعجاب أكثر ممّا تتصوّرين، ورمقها بنظرة حنونة ضايقتها.

كانت البنايات تتوارى عاجزة وتساءلت پول كيف أمكنه القيادة.

مزّقت جوربها وهي تصعد؛ أحسّت بالغبطة بشكل سحريّ، في سيّارة غير مريحة، مع شابٍّ لا تعرفه، يشعر بالإغواء، وهذا المطر الذي يتسرّب من غطاء السيّارة، مُلَوِّثاً معطفها الفاتح. أخذت تدندن: عندما تدفع ضرائبها وترسِلَ معاشَ أمّها وتقضِيَ ديونها في المحلّ، سيبقى لها... لا ترغب في إجراء العمليّة. كان سيمون يقود بسرعة، هو أيضاً. فكّرت في روجي وفي اللّيلة التي أمضَتها، وانزعَجَت.

«ألا ترغبين في تناول الغداء معي يوماً ما؟»

تكلّم سيمون بسرعة دون النّظر إليها. أصابها الارتباك لحظة. لم

تكـن تعرفه وتوجّب عليها أن تدخـل معه في حوار، أن تطرح عليه بعض الأسئلة التي تتعلّق به، أن تأذن بحياة جديدة. قاومت.

- لا أستطيع هذه الأيّام؛ لَدَيَّ عمل كثير.

- آه! حَسَناً، قال.

لم يُلِحَّ عليها. رمقته بنظرة، أبطأ وبدا أنّه يقود حزيناً. تناولت سيجارة وقـدّم قدّاحة. كان لَدَيه معصمُ مراهـق، وكان نحيفاً جدّاً، يخرج من بذلة كبيرة «توید». «بجسـدٍ كهذا ولباس كهذا يجب أن يكون ناصب فخاخ»، فكّـرت، ولوهلـة خَطَـر لهـا أن تهتمّ بـه. إنّه تحديـداً نوع الشّـباب الذين يُلهمون نساءً في مثل سنّها أفكارَ أمومة.

- هنا، قالت.

نـزل دون أن تنبـس بكلمـة، فتـح لهـا البـاب. كانت سـحنته مهزومة وحزينة.

- شكراً مرّة أخرى، قالت.

- العفو.

تقدّمت نحو البوّابة واستدارت. كان ينظر إليها دون حركة.

الفصل الثالث

أهدر سيمون ربع ساعة في إيجاد مكان يركن فيه سيّارته وانتهى به الأمر ليركنها على بعد خمسمائة متر من مكتبه. كان يعمل لصالح أحد أصدقاء أمّه: مُحامٍ ذائع الصّيت ومقيت للغاية. كان يتحمّل حماقاته لأسباب يخشى أن يكون محقّاً في شأنها. أحياناً كانت تراوده الرّغبة في دفعه بقوّة لكنّ كسله كان يمنعُه. عندما انخرط في الجادة تعثّر وراح يعرج مُذعناً وهادئاً. تلتفت النّساء على أعقابهنّ لدى رؤيته، ويُحسّ سيمون أفكارَهنّ تسوّط ظهره: «شابّ وسيم جدّاً وكسيح، يا للخسارة!»، مرّة أخرى لا يُسعفه جسمه ما عدا ارتياحاً من نوع: «لم أجد القوّة لأكون ذميماً يوماً» ولدى مرور هذه الفكرة بخاطره تنبّأ لنفسه بحياة زاهدة، رسّاماً منبوذاً تارة، راعياً في المستنقعات تارة أخرى.

دخل يعرج إلى المكتب، وألقت عليه العجوز «أليس» نظرة نصف مُشفقة، نصف مُرتابة. كانت تعرف جيّداً تسلياته المُفضّلة وكانت تتحمّلها بتنازل مشحون بالنّدم. ربّما لو كان جادّاً، في جسمِه وخياله لكان في مصافِ المحامين الكبار. ألقى عليها تحيّة منمّقة وجلس إلى طاولتها.

- لِمَ أنتَ تعرُج؟

- ليس تماماً، مَنْ قتلَ مَنْ ليلة البارحة؟ متى سيكون عَلَيّ الاهتمام بجريمة جميلة تُحتَمَل؟

- اتّصلنا بك ثلاث مرّات هذا الصّباح. إنّها الحادية عشرة والنّصف.

الـ«نحن» يُقصد بها الأستاذ. ألقى سيمون نظرة ناحية الباب.

- استيقظتُ متأخّراً، لكنّي وجدتُ إنساناً رائعاً ولطيفاً.

- امرأة؟

- نعم، تدرين، وجهاً فاتناً، لطيفاً جدّاً وغير مرتّب... إيماءات حقيقيّة... تعاني أمراً نجهله...

- يحسُن بك الاطّلاع على ملفّ «غِيّو».

- حسناً.

- متزوّجة؟

صحا سيمون من أحلامه فجأة.

«لا أعرف... لكن حتّى لو كانت مُتزوّجة فهي متزوّجة بشكل سيّئ. كان لديها متاعب ماديّة وسُوِّيت أوضاعها بعد ذلك. كانت منشرحة تماماً. أعشق النّساء اللّاتي يُبهجهنّ المال»

هزّت كتفيها.

- هذا يعني أنّك تعشقهنّ جميعهنّ.

- تقريباً، قال سيمون. ما عدا الصّغيرات جدّاً في السنّ.

غاص في ملفّه، فُتِح الباب وأطلّ الأستاذ «فلوري» برأسِه.

«سيّد ڤان دان بيش... دقيقة»

تبادل سيمون نظرة مع السّكرتيرة.

نهض ودخل المكتب الإنجليزي الذي يكرهه لمثاليّته.

«لديك علم بالسّاعة؟»

استرسل الأستاذ «فلوري» في خطبة حول الانضباط والعمل، وانتهى إلى مدح صبره الخاصّ وصبر السيّدة ڤان دان بيش

سيمون ينظر عبر النّافذة. بدا له أنّه يعيش مجدّداً مشهداً قديماً، وأنّه

عـاش دائماً في هذا المكتب الإنجليزي وما انفكّ يسـمع هذه الكلمات. خالجه شعور بأنّ شيئاً ما يُطبِق على نَفَسِه، يخنقه ويؤدّي به إلى الموت.

«مـاذا أنجزتُ، فكّر فجأة، ماذا أنجزت منذ خمس وعشـرين سـنة ما عدا الانتقال من أستاذ إلى آخر، مُوبَّخاً دائماً، فخوراً بذلك؟»

كانـت تلـك المرّة الأولـى التي يطرح فيها السّـؤال بهـذه القوّة ورفع صوته آليّاً.

- ماذا فعلتُ؟

- مـاذا؟ لم تفعل شـيئاً، صديقـي العزيز، هنا تكمن المأسـاة: أنتَ لا تفعل شيئاً.

- أعتقد أيضاً أنّي لم أحبّ أحداً أبداً، تابَعَ سيمون.

- لسـتُ أطلـب منك الوقـوع في حبّـي أو في حبّ العجـوز «أليس» (انفجر الأستاذ «فلوري» ضاحكاً). أدعوك فقط إلى العمل، هناك حدود لصبري.

- هناك حدود لكلّ شيء، قال سيمون شارداً.

كان يشـعر بأنّه في قمّة الحُلُم، في قمّة العَبَث. الشّعور بأنّه لم ينم منذ عشرة أيّام، دون أكل وعلى مشارف الموت عطشاً.

- أتسخر منّي؟

- لا، قال سيمون. أعتذر سأنتبه لما أقول مُستقبلاً.

خـرج مُتقهقـراً إلى الـوراء، جلس إلـى الطّاولة، رأسُـه بيـن راحتيه، تحـت نظرات «أليـس» المندهشـة. «مـاذا دهانـي، فكّر، مـاذا دهاني؟» حاول اسـتحضار طفولته في بريطانيا، شـغُفَ، نعم، في الخامسـة عشرة من عمره، شـغُفَ بإحدى صديقات أمّه التي عاشـرتهنّ مدّة أسبوع. حياة سـهلة، أصدقاء مرحون، فتيات، دروب مُشمسـة. دار كلّ ذلك في خَلَده

دون التوقّف عند ذكرى معيّنة، ربّما ليس هناك شيء يُذكَر. كان لديه خمس وعشرون سنة.

«لا تقلق، قالت السيّدة «أليس». ستمرّ الغيمة. أنتَ تعرفه»

لم يُجِب. ظلّ فقط يخطّ بقلم رصاص على ورق نشّاف.

«فكِّر في صديقتك، تابعت السيّدة «أليس»، قلقة، أو الأحرى في ملفّ «غِيّو»، استدركت.

- ليس لَدَيّ صديقة، قال سيمون.

- والتي عرفتها هذا الصّباح، ما اسمُها بالمناسبة؟

- لا أعرف.

كان ذلك صحيحاً، لم يكن يعرف حتّى اسمها. كان أمراً رائعاً ألّا يعرف شيئاً عن أحدهم في باريس، بشكل ميؤوس تماماً، أحد ما لا يمكنه تخيُّلُه بمحض إرادته أيّاماً.

كان روجي مُمَدّداً على كنبة الصّالون، يُدخّن بتأنٍّ، منهكاً من الأعمال. لقد أمضى اليوم على رصيف الشّحن يشرف على عودة شاحناته، كان مُبَلّلاً، وفوق ذلك كان مُجبَراً على التنقّل عبر طريق «ليل»، وقت الغداء، ليُعاين حادثاً سيُكلّفه مائة ألف فرنك.

جهّزت پول الطّاولة.

- وتيريزا هذه، قال.

- أيَّ تيريزا؟

- السيّدة ڤان دان بيش. وجدتُ اسمها هذا الصّباح، الله وحده يعلم لماذا.

- كلّ شيء تمام، قالت پول. أنا أعتني بكلّ شيء. لم أحدّثك عن ذلك لأنّ الأعمال التي لديكَ تسبّبُ لك الكثير من الإزعاج...

- تعتقدين أنّك بذلك قد تؤرّقينني أكثر؟

- لا، فكّرتُ فقط...

- تظنّين أنّي أناني، پول؟

استوى في جلسته على الكنبة، حدّق فيها بعينيه الزّرقاوين؛ كانت سحنته غاضبة، سيتوجّب عليها أن تهدّئه، أن تشرح له بأنّه الأفضل بين كلّ الرّجال، الأمر الذي - من جانب ما - كان صحيحاً بالنّسبة إليها، وهذا يجعلها سعيدة. جلست إلى جواره.

- لستَ أنانيّاً، أنت منشغل بأعمالك؛ من الطّبيعي أن تتكلّم عنها...

- لا، أقصد بالنّسبة إليكِ. هل تجدينني أنانيّاً للغاية؟

انتبه إلى أنّه فكّر فيها طيلة اليوم، على الأرجح منذ تركها البارحة أمام بابها مشوّشة النّظرات.

تردّدت: لم يسبق له أن طرح عليها مثل هذا السّؤال وربّما كان ذلك هو الوقت المناسب للتطرّق معه إليه. لكنّها أحسّت بأنّ مزاجها رائق، وبأنّها واثقة من نفسها فيما كانت سحنته مُتعبة جدّاً... عَدَلت.

- لا، روجي. صحيح أنّي أشعر بالوحدة أحياناً، وبأنّي صرتُ أقلّ شباباً وبتُّ غير قادرة على الاستمرار في رفقتك، لكنّي سعيدة.

- أنتِ سعيدة؟

- نعم.

استلقى. قالت: «أنا سعيدة»، ولم يبق على السّؤال الذي رافقه طيلة اليوم سوى أن يختفي. لا شيء يهمّه أكثر -تعلَمين، كلُّ هذه القصص التي تحدث معي، إنّها... حسناً، أنتِ تعرفين قيمتها.

- نعم، نعم، قالت.

نظرت إليه، كانت عيناه مغمضتين، بدا لها صبيانيّاً. مُمدّداً على الكنبة،

ثقيلاً، فارع الطّول، مستفهماً حول أشياء طفوليّة: «هل أنتِ سعيدة؟» مدّ يده نحوها؛ أخذتها في يدها وجلست بالقرب منه. حافظ على عينيه مُغمضتين.

مكتبة
t.me/t_pdf

«پول، قال پول... من دونك، تدرين پول...

- نعم.

مالت عليه وقبّلت خدّه. كان قد غرق في النّوم.

انتزع يده كما اتّفق من يد پول، ووضعها فوق قلبه.

تناولت كتاباً.

استيقظ بعد ساعة، مفعماً بالنّشاط، ألقى على ساعته نظرة، وقرّر بأنّها ساعة الخروج إلى الرّقص والشّراب لنسيان الشّاحنات الملعونة. كانت پول تشعر بالنّعاس، لكن ما من عذر يمكنه أن يقاوم رغبة من رغبات روجي.

أخذها إلى مكان جديد، قبوٍ في شارع «سان جرمان»، كان مُزوّقاً على شكل منتزه صغير، وسابح في الظّلال وكان جهاز الأسطوانات غارقاً في الإيقاعات الأمريكيّة الجنوبيّة.

«لا أستطيع الخروج كلّ مساء، قالت پول وهي تجلس، سيصبح لديّ مائة عام غداً. حتّى أنّي وأنا أستيقظ هذا الصّباح...»

ثمّ، فقط، في اللّحظة التي حاولت فيها تذكّر سيمون، نسيته. والتفتت إلى روجي.

«لاحظ بأنّي، هذا الصّباح...»

إلّا أنّها سكتت. كان سيمون واقفاً وراءها بعدُ.

- مرحباً، قال.

- السيّد «فرتيت»، السيّد ڤان دان بيش، قالت پول.

- بحثتُ عنكِ ووجدتكِ، قال سيمون، إنّه مؤشّر جيّد.

ودون ترقّب، تهاوى على مقعد. تراجع روجي محتقناً.

«بحثتُ عنك في كلّ مكان، تابع سيمون. ثمّ انتهى بي الأمر لأتساءل إن كنتُ حلمتُ بك»

كانت عيناه تتألّقان ووضع يده على كتف پول المذهولة.

- ربّما أنتَ جالس في طاولة أخرى؟ قال روجي.

- هل أنتِ متزوّجة؟ سألها سيمون. لا يمكنني أن أصدّق هذا.

- إنّه يزعجني، قال روجي بصوت مرتفع. سأحوّله.

رمقهُ سيمون ثمّ استند إلى الطّاولة بمرفقيه جاعلاً رأسه بين راحتيه.

- معك حقّ، سيّدي، أنا آسف، يبدو أنّي شربتُ كثيراً لكنّي اكتشفتُ هذا الصّباح بأنّي لم أنجز شيئاً في حياتي. لا شيء.

- إذاً، قم بأوّل إنجاز جيّد لك وانصرف.

- دعه، قالت پول بهدوء. هو تعيس. من منّا لم يشرب أكثر من اللّازم يوماً. إنّه ابن... أم «تيريزا» خاصَّتِك.

- الابن؟ قال روجي مُستفهماً... هذا كثير.

انحنى إلى الأمام فيما أراح سيمون رأسَه على ذراعيه فوق الطّاولة.

«اصْحُ، قال روجي، سنشرب كأساً معاً. وستشرح لنا أحزانك. سأجلب الشّراب بنفسي، الخدمات هنا بطيئة جدّاً!»

بدأت پول تنشرح، فمُجرّد التّفكير في حوار بين روجي وبين هذا الشابّ الغريب يسلّيها مُسبَقاً. رفع سيمون رأسه ورأى كيف أنّ روجي كان يتنقّل بصعوبة بين الطّاولات.

- ها هو ذا رجل، قال، أليس كذلك؟ رجل حقيقيّ؟ يزعجني هؤلاء الأقوياء، الفحول، أصحاب الأفكار السّليمة، أنا...

- النّاس ليسوا بهذه البساطة، قالت پول بجفاء.

- تحبّينه؟

- الأمر لا يخصُّك.

كانت تُغطّي عينيه خصلة من شعره، ضوء الشّموع كان يرسم خطوطاً على قسماته، كان رائعاً. في الطّاولة المجاورة كانت هناك سيّدتان ترمقانه بغبطة.

أعتذر منكِ، قال سيمون. غريب حقّاً: منذ الصّباح وأنا أطلب الصّفح. أعتقد بأنّي فظّ.

عاد روجي بثلاث كؤوس مُغمغماً بأنّ الجميع يصِلون إلى هذه المرحلة. شرب سيمون كأسه في جرعة واحدة والتزم الصّمت حذراً. كان جالساً بجانبهما دون حركة. راقبهما يرقصان، سمعهما يتحدّثان دون ردّة فعل حتّى أنّهما نسياه تدريجيّاً. كانت فقط پول بين الفينة والأخرى تنظر إليه بجوارها كطفل لطيف فلا تتمالك نفسها عن الضّحك.

حين همّوا بالمغادرة، استوى سيمون ثمّ هوى. قرّرا أن يقلّاه إلى بيته. كان نائماً في سيّارة روجي ورأسه يرتطم بكتف پول. كان شعرُه ناعماً كالحرير. وكان يتنفّس بهدوء. أخيراً وضعت يدها على جبينه كي لا يؤذيه الزّجاج وأصبح رأسه المهملُ تماماً ثقيلاً في كفّها. في شارع «كليبير» نزل روجي وفتح البوّابة الخلفيّة.

«برفق»، همست پول.

استغرب عبارتها، لكنّه لم يقل شيئاً وأخرج سيمون من السيّارة. في ذلك المساء صعدَ مع پول إلى شقّتها، وضمّها إليه طويلاً كي يحرس نومها، حائلاً دونها ودون النّوم.

الفصل الرّابع

في اليوم التالي، عند منتصف النّهار، بينما كانت پول مقرفصة أمام الواجهة البلّوريّة محاولة إقناع الحائك بأنّه ليس من الذّوق جعلُ تمثال نصفيّ من الجصّ يرتدي قبّعة، إذ بسيمون يدخل. كان يراقبها منذ خمسِ دقائق، مُختبئاً خلف كشك، بقلب يخفق بشدّة. ما كان يعرف تحديداً إن كان قلبُه يخفق لرؤيتها أم لأنّه يختبئ. كان دائماً يحبّ الاختباء؛ يحدث أيضاً أن يستعمل يده اليسرى لأجل ألف انثناء، كما لو كانت اليُمنى تقبض على مُسدّس أو أنّها مكسُوّة بطفح جلديّ، الأمر الذي يُفزع الناس في المحلّ؛ كانت مسألة تستدعي علاجاً نفسيّاً، هذا ما كانت أمّه تدّعيه. وهو يرى پول راكعة وسط الواجهة، تمنّى لو أنّه لم يلتقِ بها البتّة ولا رآها في تلك الوضعيّة خلف الزّجاج. لن يُصدَم برفض محتمل يستوجبُ تلميعُه مرّة ثانية. تُرى ماذا قال البارحة؟ لقد تصرّف كأبله، لقد ثَمِلَ بصفاقة، تحدّث عن عواطفه، إنّها قمّة في الفُحش... انزوى مُجدّداً خلف الكشك، أوشك على الرّحيل، ثمّ ألقى عليها نظرة أخيرة. بغتة، ساورته رغبة في قطع الطّريق، نَزْعَ القبّعة من بين يديها، هذه القبّعة القبيحة بدبابيسها الطّويلة. أن ينتزعها من وظيفتها في آن واحد؛ من هذه الحياة التي على صاحبها أن يستيقظ عند الفجر ليركع داخل واجهة زجاجيّة تحت أنظار المارّة. كان المُشاة يتوقّفون لحظة، ينظرون إليها بفضول، ودون شكّ، لا بدّ أنّ بينهم من يشتهيها على ركبتيها في

وضعيّتها تلك، الذّراعان ممدودان صوب تمثال الجصّ. اجتاحته الرّغبة في امتلاكها في تلك اللّحظة فقطع الطّريق مُسرعاً.

تخيّلها عاجزة أمام نظراته، مُتعَبَة، ترمُقُه كما لو كان تسلية مُشتهاة؛ إلّا أنّها اكتفت بابتسامة جافّة.

«أترغب في قبّعة لأحدهم؟»

طرف برمشَيه، لكنّ الحائك دفعه بشكل لا يخلو من تغنّج.

- عزيـزي، أنت تنتظر پول، هـذا جيّد؛ لكن اجلس هناك من فضلك، دعنا نتمّ عملنا.

- إنّه لا ينتظرني، قالت پول، وهي تحوّل شمعداناً من مكانه.

- فـي مكانك، كنتُ سـأضعه على اليسـار، قال سـيمون. إلى الوراء قليلاً. هذا أكثر إيحاءً.

لحظـة، رمقته بِغَيْظ. ابتسـم لهـا. كان قد غيَّرَ مهمّتـه. كان بعدُ الرّجلَ القادم ليلتحق بعشـيقته فـي إحدى الأماكن الفاخرة. كان الشـابّ طافحاً بالذّوق. لاحقاً، سيتندّر سيمون وپول بإعجاب هذا الحائك الشاذّ.

- معهُ حقّ، قال الحائك، هذا أكثر إيحاءً.

- مِمَّ؟ قالت پول ببرود.

نظرا إليها معاً.

«من لا شيء. من لا شيء على الإطلاق»

وأطلـق وحده ضحكة مرحة بشـكل جعل پول تشـيح برأسـها كي لا تُعنى بما يدور بينهما. ابتعد الحائك مستاءً. وهي تبتعد قليلاً عن الزّجاج لترى بشـكل أفضل، اصطدمت بكتف سـيمون الذي اقترب وأخذها من ذراعها على المنصّة وقال على نحو حالم:

«انظري، الجوّ مُشمس»

عبر الزّجاج المُبتَلّ غمرتها الشّمسُ بحرارتها المباغتة المشحونة بالنّدم الذي يرافق الخريف. أحسّت پول بأنّها مُطوّقة.

«نعم، قالت، الجوّ مُشمس»

لبثا لحظة ساكِنَيْن، هي على المنصّة، أعلى منه، مُشيحة عنه بظهرها مُتّكئة عليه، ثمّ تحرّرت.

- ربّما يحسُن بك أن تخلد إلى النّوم.

- أشعر بالجوع، قال.

- تناول إفطارك إذاً.

- ألا ترغبين في المجيء معي؟

تردّدت. كأنّ روجي قد هاتفها قائلاً إنّه منهمك. فكّرت في تناول سندوتش في البار المقابل والقيام ببعض المقتنيات. غير أنّ هذا التّذكير المفاجئ بالشّمس يجعل من أرضيّات المقاهي وأروقة المحلّات مُقزّزة. كان لديها رغبة للخروج إلى المرج الأخضر، إلى العُشب، حتّى المُصفرّ منه بسبب هذا الفصل.

- أحبّذ العُشب، قالت.

- لنذهب، قال. لديّ سيّارتي القديمة، والبادية قريبة...

ندّت عنها حركة دِفاعيّة كما لو كان يُعتَدَى عليها. الرّيفُ مع هذا الشابّ المجهول، قد لا يكون مُسلّياً... ساعتان وحدنا وجهاً لوجه...

- ... أو غابة بولونْي Bologne، أضاف مُطمئنّاً. إذا أحسستِ بالملل يمكنكِ مهاتفة سيّارة تاكسي.

- أنتَ تُفكّر في كلّ شيء.

- عَلَيَّ الاعتراف بأنّي كنتُ مغموساً في الخجل عندما استيقظت. جئتُ أعتذر.

- إنّها أشياء تحدث لنا جميعاً، قالت پول بلطف.

ارتدت معطفها؛ كانت دائماً أنيقة. فتح لها سيمون البوّابة وركبت دون أن تذكر بأنّها وافقت على هذا الغداء المُغَفّل. قُدَّ جوربُها عند الصّعود فأطلقت أنّة احتقان.

- لا بدّ أنّ صديقاتك يرتدين البنطلونات.

- ليسَ لَدَيّ، قال.

- صديقات؟

- نعم.

- كيف يحدُث هذا؟

- لا أدري.

انتابتها رغبة في أن تسخر منه.

كان يُبهجها مزيج الحياء والوقاحة، العمق، الأحمق في بعض الأحيان، والدُّعابة. قال: «لا أدري»، بصوتٍ منخفض تقريباً وبصورة غامضة.

أومأت برأسِها.

- حاول أن تتذكّر... متى بدأت هذه الفوضى العارمة؟

- تعلمين، أنا السّبب. كنتُ مع فتاة لطيفة لكنّها كانت شاعريّة جدّاً. إنّها تُشبه صورة الشابّة في عَيْنَيْ أناس أربعينيّين.

لم تستسغ ما سمعت في داخلها.

- ما هي الصّورة التي نكوّنها عن الشّباب في الأربعين؟

- حسناً... كان يلفّها الأسى، تقود سيّارتها ذات الأربعة خيول بأقصى سرعة، بأسنان مضغوطة، تُدخّن الـ«غولواز» فور استيقاظها... ولم تكن تقول لي شيئاً غير أنّ الحبّ هو التقاءُ بَشَرَتيْن.

انخرطت في ضحك طويل.

- ماذا بعد؟

- حين رحلتُ، بكتْ رغم كلِّ شيء. لستُ فخوراً بذلك، تابَع بحماس، يرعبني ذلك.

كانت تفوح من الغابة رائحة العُشب النديّ والأغصان التي بدأت تتحلّل في دروب الخريف. توقّف فجأة أمام مطعم، أسرع لفتح الباب من جهة پول. قامت الأخيرة بجهد عضليٍّ للنّزول برشاقة. أحسّت بأنّها في قمّة الطّيش.

فوراً طلب سيمون كوكتيلاً ورمقته پول بصرامة.

- بعد ليلتك الماضية، يجدُرُ بك أن تشرب الماء.

- أحسّ بأنّي على ما يُرام. ثمّ إنّ الجُرأة تنقصني، يجب أن أرتّب الوضع كي لا تشعري معي بالملل كثيراً، أنا أتزوّد بالقوّة.

كان المطعم فارغاً تقريباً وكان هناك هذا الشابّ كثيرُ التذمُّر.

صمت سيمون واستغرق في صمته. لم تفكّر پول في الملل. خطر لها فقط بأنّه صمتٌ متعمّد، بأنّ لدى سيمون خطّة لما سيدور بينهما من حوار أثناء الغداء. يُفترَضُ بأنّه مليء بالأفكار الماكرة كقِطّ.

«هذا أكثر إيحاءً»، تكلّف فجأة، مُقلّداً الحائك، وانفجرت پول ضاحكة.

«أما زلتَ تُقلّد جيّداً؟»

- ليس سيّئاً. لسوء الحظّ ليس بيننا علاقات مُشتركة. لو قلّدتُ أمّي لقلتِ إنّ هذا غيرُ لائق. مع ذلك: «ألا ترينَ معي أنّ ظاهرة السّاتان Satin، هنا، قليلاً على اليمين، سيُضفي جوّاً، حرارة؟».

- أنتَ جائر، لكنّك على صواب.

- أمّا عن صديقكِ بالأمس، فلم أعاشرهُ جيّداً. ثمّ لا بدّ أنّه عصيّ عن التّقليد.

ران صمتٌ قصير. ابتسمت پول.

- هو فعلاً كذلك.

- أمّا أنا، فلستُ سوى نسخة شاحبة عن دزّينات من الشّباب المُدَلَّلين، محشورين داخل مهن حرّة بفضل والديهم. شباب منشغلين بالانشغال. إجمالاً أنت تخسرين بالنّقاط، أعني: كي نتناول الغداء.

جعلتها القسوةُ التي في صوتِه تنتبه.

- روجي مشغول، قالت. وإلّا ما كنتُ هنا.

- أعرفُ هذا جيّداً، قال بنبرة حزن أربَكَتها.

فيما عدا ذلك تحدّثا خلال الغداء عن وظائفهما. قلّد سيمون محاكمة جريمة حبّ. في لحظة ما وقف في قلب المرافعة. أشار إلى پول بإصبعِه وضحك كثيراً:

«وأنتَ، أتّهِمُكِ بعدم القيام بواجب التحلّي بالإنسانيّة. باسمِ هذا الهالك، أتّهِمُكِ بإهمال الحبّ، بالاستهتار بواجب أن تكوني سعيدة، بكونِك عِشتِ السّراب، بالخنوع. يجب أن يُسَلّط عليكِ حكم بالإعدام، سيُرمى بكِ في الصّمت»

توقّف، شرب كأس النّبيذ في جرعة واحدة. لم تسايرهُ پول.

- عقوبة قاسية، قالت مبتسمة.

- الأفظع، قال، لا أرى أفظع ولا أكثر قابليّة للوقوع. لا شيء أكثر. ككلّ النّاس. لكن لا أحد يُفشي سرَّه. أنا لديَّ الرّغبة في أن أصرخ به أحياناً: أنا خائف، أنا خائف. أحبّوني.

- أنا أيضاً، قالت، كما لو كان رُغماً عنها.

في لحظة لمحت الجدار المقابل لسريرها، في غرفتها. عندما تكون السّتائر مسحوبة واللّوحة القديمة موجودة والكوميدينو على اليسار.

ما تراه كلّ يوم، صباحاً ومساءً، ما ستظلّ تراه بعد عشر سنوات ربّما. أكثَرَ وحدة من اليوم. روجي، ماذا يفعل؟ لا يملك الحقّ، لا أحد يملك حقّ الحكم عليها بالكبر. بهذا الشّكل؛ لا أحد، حتّى هي نفسها...

«لا بدّ أنّي أبدو في نظرك أكثر حماقة وتذمّراً من البارحة، قال سيمون بهدوء. أو لعلّكِ تقولين إنّها مجرّد كوميديا لجأ إليها هذا الشابّ ليستميل عاطفتكِ؟»

كان مواجهاً لها، كانت عيناه صافيتين قلقتين بعض الشّيء، كان وجهه ناعماً، ومتاحاً إلى درجة أنّها لمسته بأناملها.

- لا، لا، قالت، أظنّ... أظنُّ أيضاً أنّك لا تزال شابّاً على هذا الكلام. ومؤكّد أنّك محبوب للغاية.

- يجب أن نكون اثنين، قال. تعالَيْ، سنقوم ببعض الخطوات في الخارج. الجوّ لطيف جدّاً.

خرجا معاً، أخذها من ذراعها وسارا قليلاً، دون كلمة واحدة. غزا الخريف قلب پول برفق. الأوراق المُبتَلّة، الحمراء، المُداسة، المُلتَصقة بعضها ببعض، تمتزج بالأرض. أحسّت بنوع من الرقّة نحو هذه الهيئة التي تمسك ذراعها.

في غضون دقائق أصبح هذا المجهول، الرّفيق الذي نتبادل معه خطوات في ممشى مُقفر، آخر السّنة. كانت دائماً تُكنّ المودّة لرفاق الطّريق في النّزهة أو في الحياة، نوعاً من العرفان لما هو أكبر منها، مُختلفاً عنها وقريباً منها في آن. لاح لها من جديد وجه «مارك» زوجها السّابق الذي هجرته وهجرت معه الحياة السّهلة، وجه الآخر الذي أحبّها كثيراً. ثمّ أخيراً وجه روجي، الوجه الوحيد الحاضر في ذاكرتها حيّاً، والقادر

على التّعبير في مُخيّلتها. ثلاثة رجال في حياة امرأة، ثلاثة رجال طيّبين. أليس هذا مهولاً؟

«أنتِ حزينة؟» سأل سيمون.

استدارت نحوه، ابتسمت دون إجابة. تابعا سيرهما.

«أرغب في... قال سيمون بصوتٍ مُختنق، أرغب في... لا أعرفُكِ، لكنّي أرغب في التّصديق بأنّك سعيدة. أشعر... امم... أشعر ناحيتك بالإعجاب»

لم تكن تسمعه. لقد تأخّر الوقت. ربّما هاتفها روجي لاحتساء القهوة معها. لا بدّ أنّها تخلّفت عنه. حدّثها عن نيّته في الذّهاب إلى الرّيف لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. هل ستتمكّن من التخلّص من عملها قبل ذلك؟ أما زالت لديه الرّغبة؟ أم أنّها واحدة من الوعود التي ينتزعها منه الحبّ، ليلاً عندما لا يعود يرى للحياة معنى من دونها ويبدو له حبّهما حقيقة ثقيلة لا مفرّ منها (تعرف ذلك جيّداً). لكن ما إن يتجاوز الباب، ما إن يتنفّس رائحة حرّيته الجامحة على الرّصيف فإنّه يضيع منها ثانية. تحدّثت قليلاً خلال طريق العودة. شكرت سيمون على الغداء وأعلنت بأنّها ستكون مسرورة لو هاتفها يوماً.

ظلّ سيمون يرنو إليها وهي ترحَل، دون حركة. أحسَّ بأنّه أخرقٌ ومتعب جدّاً.

الفصل الخامس

كانت حقّاً مفاجأة مذهلة. استدار روجي نحو منضدة السّرير بحثاً عن سيجارة. وضحكت الشابّة التي كانت بمحاذاته.

«عادة يدخّن الرّجالُ بعد الانتهاء منها»

لم تكن فكرة عظيمة!

عرض عليها روجي العُلبة فرفضت بإيماءة من رأسِها.

«ميسي»، أيمكنني أن أطرح عليكِ سؤالاً؟ ماذا دهاكِ هذا المساء؟ منذ تعرّفنا مدّة شهرين وأنتِ لا تغادرين هذا الـ«م. شيريل»...

- «م. شيريل» ضروري لمهنتي. خطر لي أن أتسلّى قليلاً. أتفهم؟

انطبع في ذهنه فوراً بأنّها من النّوع الذي يزيل الكُلفَة من الوهلة الأولى، حالما تضع رأسها على المخدّة. فأخذ يضحك.

- لماذا أنا؟ ثمّة أناسٌ أكثرُ شباباً، يصلُحون أكثر منّي في هذه الظّروف؟

- أتدري، الصّغار يثرثرون، يثرثرون. ثمّ إنّك أنت على الأقلّ، تبدو شديد الرّغبة. وهذا نادر أقسمُ لك. النّساءُ يستشعرن ذلك. لا تقل لي بأنّك غير معتاد على الغزوات...

- ليس بهذه السُّرعة، قال ضاحكاً.

كانت جميلة جدّاً. مؤكّدٌ أنّه كان لديها أفكارٌ صغيرة حول الحياة، الرّجال، النّساء في رأسِها الضيّق. لو أنّه ألحّ عليها لفسّرت له كيف يسير

العالم. كان سيحبّذ ذلك كثيراً. ككلّ مرّة يشعر فيها بأنّه غريب ومُشفق على نفسه، مرعوباً من فكرة أنّ هذه الأجساد السّاحرة، المختلفة، والتي كان يودّ اكتشافها، تتجوّل في الشّوارع، في الحياة، مُزوّدة برؤوسٍ مُشوّشة وضيّقة.

داعب شعرها.

- أنت... لا شكّ في أنّك حنون. الوحوش الذين مثلك عادة يكونون طيّبين.

- طبعاً، قال بشرود.

- ليسَ لديّ الرّغبة في تركك، تابعت، لو تعلم ما هو المُمِلّ في «شيريل»...

- لن أهتدي أبداً.

- ماذا لو نُسافر يومين، روجي؟ السّبتَ والأحد. ألا ترغب؟ سنمكث دون تنقّل في غرفة كبيرة في الرّيف.

نظر إليها، استندت إلى مرفقها. لاح له العِرْقُ في رقبتها ينبُض، رمقتهُ كما فعلت خلال الكوكتيل المذكور، ابتَسَم.

- قُل نعم، الآن، أتسمَع...

- حالاً، ردّدت وهي تلفتُ انتباهه.

عضّتهُ في كتفه، وهي تُدمدم بغموض في أنّ الحبّ يمكنه أن يُمارَسَ بحيوانيّة هو أيضاً.

خسارة، قالت پول. أخيراً، اعمل جيّداً، ولا تسرِع وأنتَ تقود السيّارة. أقبّلُك.

أقفلت الخطّ. لم يعد هناك عطلة نهاية أسبوع. على روجي الذّهاب إلى «ليل» ذلك السّبت، شرح لها، لأجل أعمال بينه وبين شريكه هناك.

ربّما كان ذلك صحيحاً فكّرت لوهلة في الفُندُق الذي يقيمان فيه عادة، في النّار الموقدة في كلّ مكان. في الغرفة التي تفوح منها رائحة النّفتالين؛ تخيّلت شكل اليومين مع روجي، النّزهات، الحوارات مع روجي، المساء، الاستيقاظ أحدهما بجانب الآخر، مع الإحساس بأنّ الوقت كلّه ملك لهما. اليوم بأكمله، حارّاً وناعماً كالشّاطئ. عادت إلى الهاتف. يمكنها تناول الغداء مع صديقة، لعب البريدج مساءً عند... لا شيء يُعجِبها. اعتراها الخوف من البقاء وحيدة يومين بأسرِهما. كانت تكرهُ أيّام الأحد التي تمرُّ على امرأة وحيدة؛ الكُتُبُ المقروءة على السّرير، التأخّر في كلّ شيء ما استطاعتْ، السّينما المُزدحمة، ربّما كوكتيلاً مع أحدهم أو عَشاءً وأخيراً لدى عودتها الفوضى في السّرير، وذاك الانطباع بأنّها لم تعش لحظة واحدة منذ الصّباح.

قال لها روجي إنّه سيكلّمها في اليوم الموالي. كان صوتُه حنوناً. كانت تنتظر مكالمته كي تخرج. على أيّ حال، كان لديها أشياء تحتاج إلى ترتيب، أشياء من قبيل المشاغل التي توصيها بها أمّها، الاهتمامات الألف في حياة امرأة والتي طالما أحسّت ناحيتها بالنّفور كما لو كان الوقتُ حيواناً رخواً ينبغي التّقليص منه. لكنّها عادت لتتأسّف لأنّ هذا المذاق ينقُصُها في بيتها. أيُعقَل أن يكون هناك حين من حياة المرء يجد فيه أنْ لا بدّ له من أن يهجم على حياته، بل أن يدافع عن نفسه منها، تماماً كصديقة قديمة لا تكتُم الأسرار؟ أهيَ حقّاً معنيّة بذلك؟ ولوهلة هُيّئ لها أنّها سمعت صدى السّؤال يتردّد في أعماقها، صدىً قويّاً جدّاً.

في ذلك السّبت بالذّات، عند الثّانية قرّرت أن تتّصل بالسيّدة ڤان دان بيش. إن حدثت المُعجِزة ووجدتها قد غادرت «دوڤيل»، فستعمل معها طيلة المساء. إنّه الأمر الوحيد الذي يغريها في الوقت الحاضر. «مثل الرّجال الذين يقصدون مكاتبهم يوم الأحد هروباً من عائلاتهم، فكّرت» السيّدة ڤان دان بيش كانت تعاني نوبة كبِد، امتعضت بشكل ملحوظ ثمّ

قبِلت اقتراحها بانشراح. توجّهت پول إلى شارع «كليبير» محلّلة بعيّنات من كلّ نوع. وجدت السيّدة ڤان دان بيش في روبٍ منزليّ دِمَشقيّ، كوب ماء «إيڤيان» في يدها، وكانت ثملة قليلاً. فكّرت پول لحظة في أنّ والد سيمون يجدر به أن يكون وسيماً جدّاً كي يتغلّب على سماجة هذا الوجه.

«كيف حال ابنك؟ تعلمين أنّنا التقينا به في ذلك المساء»

لم تُضف بأنّها تناولت معه الغداء بالأمس واستغربت من عدم ذكر ذلك.

وسُرعان ما أصبحت في مواجهة إنسان له ملامح شهيد.

- كيف لي أن أعرف؟ إنّه لا يُكلّمني، لا يروي لي شيئاً، ما عدا ضيقه الماليّ بالطّبع! إضافة إلى ذلك فهو يشرب. والدُه كان يشرب هو الآخر.

- لا يبدو مُدمِناً كبيراً، ابتسمت پول. لاح لها وجه سيمون النّاعم، ولونُه الإنجليزي المُشبَع.

«إنّه وسيم، أليس كذلك؟»

انتعَشت السيّدة ڤان دان بيش وأحضرت ألبومات الصّور التي يظهر فيها سيمون طفلاً، سيمون يركب حصان پوني بقبّعة صوفيّة إنجليزيّة تُغطّي أذنيه، سيمون مذهول وهو تلميذ في المدرسة، إلخ، هناك ألف صورة له دون شكّ، وأُعجِبَت پول لكون سيمون لم يتحوّل إلى إنسان بغيضٍ أو شاذّ.

«لكن هناك دائماً وقتٌ يبتعد فيه الأولاد عنك»، زفرت الأمّ حزينة.

وفي لحظة عادت المرأة الخفيفة التي يُفتَرَض بها أن تكون.

- يجدر القولُ إنّ الفُرَصَ ليست ما يعوزه...

- بالتّأكيد، قالت پول بأدب. أتودّين رؤية هذه الأقمشة، ثمّة بينها واحد...

- نادِني «تيريزا» من فضلك.

أصبحت ودودة، تُحضرُ الشاي وتطرحُ الأسئلة. فكّرت پول في أنّ روجي قد نام معها عشرين سنة خلت وراحت تبحث في وجهها عن آثار وداعته في هذا الوجه الثّقيل. في الوقت نفسه كان عليها أن تحافظ على الجانب الرّسمي في الحوار بينهما، إلّا أنّه كان من المُلاحَظ أنّ «تيريزا» تحيد بالموضوع نحو اعترافات نسائيّة. كان الأمر كذلك دائماً. كان في وجهها نوع من التّوازُن، الاعتزاز اللذين يشجّعان على خوض طوفان من المواضيع.

«أنت أصغر منّي على الأغلب، بدأت السيّدة ڤان دان بيش - ولم تقاوم پول ابتسامة بسبب كلمة «على الأغلب» - لكن تعلمين قدرة الظّروفِ على تغيير الأشياء...»

لم تكن پول تسمعها. كانت تُذكّرها بشخص ما. وانتبهت إلى أنّها تشبه ببساطة التّقليد الذي قام به سيمون بالأمس وخطر لها أنّها تملك إحساساً قويّاً، نوعاً من القسوة التي يحجُبُها حياؤها فلا يدعه يظهر للعيان. ماذا قال لها: «أتّهمكِ بتركِ الحُبّ يتسرّبُ منكِ، بأنّك عشتِ مطرودة وخانعة، لذا فإنّي أسلّط عليكِ حكماً بالوحدة» هل كان يفكّر فيها؟ هل خمّن أشياء في حياتها؟ هل قام بذلك قصداً؟ أحسّت بالغضب يسيطر عليها بسبب هذه الفكرة.

لم تعد تسمع الثّرثرة الطّويلة بجانبها؛ وانتفضت فجأة لدى دخول سيمون. جَمَدَ في مكانه ينظُر إليها وبدرت منه إيماءة لإخفاء فرحته. لامس ذلك قلبها.

- جئتُ في الوقتِ المناسب، سأساعد.

- للأسف، عَلَيّ الذّهاب الآن.

خالجتها رغبة في الخروج مُسرِعة متجنّبة أنظار الأمّ وابنها والاختباء أخيراً مع كتاب في بيتها. في هذه السّاعة يُفتَرَضُ أن تكون مع روجي في سيّارته، تشغّل الرّاديو وتُطفئه، تضحك معه، مرعوبة عندما تصل عصبيّته

أقصى حدّ لها بسبب السُوّاق الآخرين، فيوشك أن يقودها إلى الموت. نهضت بلطف.

«سأرافقك»، قال سيمون.

عند الباب استدارت نحوه وتملّت قسماته للمرّة الأولى منذ مجيئه. كانت سحنته متعكّرة ولم تتمالك نفسها من إخباره بذلك.

«إنّه الوقت، قال، أيمكنني أن أرافقك إلى الأسفل؟»

هزّت كتفيها، وانخرطا في السُلّم. كان يسير خلفها دون كلمة. في الطّابق الأخير لم تعد تسمع وقع خطواته فالتفتت آليّاً.

استند إلى الدّرابزين.

«ستصعَد؟»

انطفأ النّور ولم يعد السُلّم الكبير مُضاءً إلّا من بصيص نور من جهة المنعطف.

فتّشت عن زرّ الإضاءة بالتّوقيت.

«إنّه خلفَكِ»، قال سيمون.

نزل الدّرجة الأخيرة وتقدّم نحوها. «سيُعجّلُ نحوي»، فكّرت پول بسأم. مرّر ذراعاً من الجهة الشّماليّة لرأسها وشغّل المفتاح. ثمّ أعقب ذراعه الأخرى إلى الجانب الآخر حتّى لم تعد قادرة على الحركة.

«دعني أمرّ»، قالت بهدوء.

لم يُجبها بل مال وأراح رأسَه على كتِفِها بحذر. سمِعَت قلبها يخفق بشدّة وبغتة أحسّت بالارتباك.

«دعني سيمون... أنت تزعجني» لكنّه لم يحرّرها. فقط، همس باسمِها مرّتين بصوت منخفض. «پول، پول»، وخلف رقبته لاحظت قضبان السُلّم الثّقيل كمشرحة صامتة.

«عزيزي سيمون، قالت أيضاً بصوتٍ منخفِض، دعني أمرّ»

تراجَعَ وابتَسَمت له لحظة قبل أن ترحل.

الفصل السادس

عندما استيقظت يوم الأحد، وجدت رسالة تحت الباب، ما كان يُسمّى فيما مضى شاعريّاً بـ «المكتوب الأزرق»، بدت لها الرّسالة شاعريّة لأنّ الشّمسَ أعادت الظّهور في سماء نوفمبر الصّافية، مالئة الغرفة بالظّلال والنّور الدّافئ. «ثمّة حفلة رائعة عند السّادسة، في قاعة «پلايال»، كَتَبَ سيمون: أتحبّين برامس؟ أعتذر عن يوم أمس» ابتَسمت. ابتَسَمت بسبب الجُملة الثّانية: «أتحبّين برامس[*] Brahms؟». كان من نوع الأسئلة التي يطرحها عليها الأولاد عندما كان عمرها سبعة عشر عاماً. وطُرِح عليها لاحقاً، دون شكّ. لكن لم تكن تذكر أنّها كانت تجيب. في هذه البيئة وفي هذه الفترة من الحياة، مَن يسمع مَن؟ ثمّ أخيراً، هل كانت تُحبّ برامس؟

فتحت صندوق أسطواناتها، فتّشت بينها فوجدت على قفا افتتاحيّة ل«ڤچنر» Wagner – تحفظُها عن ظهر قلب – كونشيرتو لبرامس لم تسمعه من قبل. كان روجي يحبّ ڤچنر. كان يقول: «هذا جميل، إنّه الصّخب، إنّها الموسيقى». شغّلت الكونشيرتو، بدت لها البداية رومانسيّة ونسِيَت أن تسمعها للأخير. انتبهت فقط إلى أنّ الموسيقى انتهت ورغبت في المزيد. آنذاك كانت تستغرق ستّة أيّام لقراءة كتاب وكانت تفقد صفحتها وتنسى الموسيقى. كان تركيزها الكلّيُّ منصَبّاً

*- برامس (Brahms): يوهانس برامس، مؤلّف موسيقي ألماني، عاش في القرن التّاسع عشر.

على عيّنات الأقمشة وعلى رجل غائب طوال الوقت. كانت تائهة، لقد أضاعت أثرها الخاصّ، إنّها لا تُفلِحُ في العثور على نفسها.

«أتحبّين برامس؟» لبثت لحظة أمام النّافذة المفتوحة، تلقّت أشعّة الشّمس في عينيها وظلّت منبهرة. وتلك الجُملة: «أتحبّين برامس؟» بدا لها أنّها تزيح الغطاء عن منسيّات مهولة العدد: كلّ ما نسيته، كلّ الأسئلة التي تجنّبتها مُتعمّدة.

«أتحبّين برامس؟» هل كانت فعلاً تحبّ شيئاً آخر خلاف نفسها ووجودها؟ بالتّأكيد، كانت تقول بأنّها تحبّ «ستندال»، كانت على الأقلّ تعرفُ أنّها تُحبّه. إنّها الكلمة: «تعرف». ربّما كانت أيضاً تعرف بأنّها تحبّ روجي. أمرٌ مُحَقّق. علامات لا تُخطئ. ساورتها رغبة في الحديث إلى أحدهم. كما كان يحدث في سنّ العشرين.

هاتَفَت سيمون. لم تكن تعرف حتّى تلك اللّحظة ماذا تقول له. ربّما: «لا أدري إن كنتُ أحبّ برامس، لا أظنّ» لم تكن تعرفُ ما إذا كانت ستحضُرُ الكونشيرتو أم لا. هذا حِكرٌ على ما سيقولُه، بصوته؛ تردّدت وبدا لها تردُّدها لذيذاً. لكنّ سيمون كان قد ذهب إلى الرّيف للغداء ولن يعود ليغيّر ملابِسه إلّا عند الخامسة. أقفلت الخطّ. في الأثناء قرّرت الذّهاب إلى الكونشيرتو. قالت في نفسها:

«لستُ ذاهبة للقاء سيمون، بل للقاء الموسيقى؛ ربّما ذهبتُ كلّ يوم أحد إذا لم أجد الجوّ مُقرِفاً بعد منتصف النّهار؛ إنّه انشغال جيّد لامرأة وحيدة»

وفي الوقت نفسه، كان من المؤسف بالنّسبة إليها أن يكون يومَ أحد، وألّا يكون في وسعِها الإسراع فوراً لاقتناء موسيقى «موزارت» وما تيسّر من «برامس». خشِيَت فقط أن يمسك سيمون يدها طيلة الحفلة؛ خشيت ذلك بالقدر نفسه الذي انتظرته. أن تتحقّق تكهّناتها الخياليّة، كان دائماً

أمراً يملؤها إحباطاً لا يُحتَمَل. أحبّت روجي لهذا السّبب. كان دائماً مجانباً لتوقّعاتها، مُكذّباً الأوضاع التي ترسُمُها مُسبَقاً.

عند السّادسة، في قاعة «پلايال» وجدت نفسها عالقة وسط حشد كأنّه دوّامة. كادت تفقد سيمون الذي مدّها بتذكرتها دون أن يقول شيئاً. وصعدا درجات السُلّم مُسرِعَين وسط طلبات مُلِحّة بالعبور وصلت ذروتها في المعبر الأخير. كانت القاعة فسيحة ومُظلمة وكانت الأوركسترا تُمهّد بمقطوعاتٍ بِنُوتاتٍ غير متناغمة كما ليُمتِّعوا الجمهور أكثر بمعجزة الانسجام بعد قليل. استدارت نحو جارها:

- لا أعرفُ إن كنتُ أحبّ برامس أم لا.

- أمّا أنا، فلم أكن على يقين من مجيئك، قال سيمون. أؤكّد لكِ بأنّ الأمر سيّان. إن كنتِ تحبّين برامس أم لا.

مكتبة
t.me/t_pdf

- كيف كانت رحلةُ الرّيف؟

ألقى عليها نظرة استغراب.

- هاتفتُكَ في البيتِ، قالت پول، لأقول لك... بأنّي أقبل.

- خِفتُ من أن تتّصلي لتعتذري أو ألّا تفعلي مُطلَقاً فخرجت، قال سيمون.

- كانت نزهة الرّيف جميلة؟ أين ذهبت؟

كانت تبدي متعة حزينة وهي تتخيّل تلّة «أودان»(*) Houdan في ضوء المساء؛ ودّت لو أنّ سيمون حدّثها عنها.

في ذلك التّوقيت، يُفتَرَضُ أن تكون قد توقّفت في «سپتويْ» Septeuil مع روجي، كان سيسير في الدّرب نفسه، تحت الأشجار الحمراء.

«كنتُ هنا وهناك ولم أنتبه إلى الأسماء. لقد بدؤوا»

---

*- أودان Houdan: مقاطعة فرنسيّة تنتمي إلى إقليم جزر فرنسا.

صفّق الجمهور، حيّاه المايسترو، ورفع عصاه وغاصا في مقعديهما مثل ألفَيْنِ آخرين. كان سيمون يظنّ أنّه يعرف الكونشيرتو: مثيراً للشّفقة ومؤثّراً جدّاً من حين إلى آخر. أحسّ بمرفق پول ملاصِقاً لمرفقه، وعندما بدأت الأوركيسترا بالعزف تحرّك قليلاً. فقد حين قطعت الموسيقى شوطاً وعى سيمون بسعال جيرانه، بشكل جمجمة رجلٍ يجلسُ متقدّماً بصفّين وخصوصاً وعى باحتقانه. في الرّيف، في فندق قريب من «أودان»، التقى روجي، روجي صحبة امرأة شابّة. سلّم على سيمون دون تقديمه إليها. «يُخيّل إليّ أنّنا نلتقي طوال الوقت؟».

سيمون، المندهش، لم يقل شيئاً. كانت نظرات روجي تتطاير تهديداً وتأمر بقطع اللّقاء. لحسن الحظّ، لم تكن النّظرات متبادلة. كانت نظرات غاضبة. لم يُجب سيمون. لم يكن خائفاً من روجي، كان حريصاً على ألّا يسبّب الألم لپول. لن تتعرّض تلك المرأة للأذى جرّاءه أبداً، لقد أقسم على ذلك؛ إنّها المرّة الأولى التي يرغب فيها في أن يحول بين أحدهم وبين المعاناة. هو الذي تُسبّب له عشيقاته السّأم باعترافاتهنّ، بأسرارهنّ، وإصرارهنّ على دفعه دفعاً إلى لعب دور الذّكر الحارِس، سيمون، المتعوّد على الهروب، كانت لديه الرّغبة في العودة والترقّب. ترقّب ماذا؟ أن تفهم هذه المرأة، أخيراً، أنّها تحبّ وقحاً بلا حدود: إنّه الأمر الأطول في العالم، دون شكّ... لا بدّ أنّها حزينة، لا بدّ أنّها تلوك في دماغِها تصرّفات روجي، ربّما اكتشفت ثغراته. فاق صوتُ كمانٍ موسيقى الأوركيسترا، راح يتغنّى يائساً بنوتة ممزّقة، وسُرعان ما غرق في موجة من الموسيقى. أوشك سيمون على أخذ پول من ذراعها وتقبيلها. نعم، تقبيلها... تخيّل نفسه مائلاً عليها، فمه يلامِسُ فمها، تحيط عنقها بيديها... أغمض عينيه. فكّرت پول وهي ترى التّعبير على وجهه أنّه فعلاً عاشقُ موسيقى. لكنّ يداً مرتعشة سرعان ما امتدّت إلى يدها وأخذتها بنفاد صبر.

بعد الكونشيرتو اصطحبها لتناول كوكتيل، ما يعني كوب عصير برتقال لها وكأسَيْ ويسكي له. تساءلت ما إذا كانت مخاوف السيّدة ڤان دان بيش مُبَرّرة. حدّثها سيمون عن الموسيقى بعينين لامِعَتين ويدين صاخِبَتين وكانت تسمَع بآذان شاردة. ربّما تصرّف روجي كي يُغادِرَ «ليل» في الوقت المناسب وأمكنه اللّحاق بموعِدِه معها على العشاء. ثمّ إنّهما كانا محطّ الأنظار.

كان سيمون أكثر وسامة بقليل أو لعلّه أصغر سنّاً منها فيما لم تعد هي كذلك، على الأقلّ كي تكون رفيقته؟

- ألا تسمعينني؟

- بلى، قالت، لكن علينا أن نغادِر. أنتظر مكالمة، ثمّ إنّهم يطيلون التّحقيق هنا!

- يُفتَرَضُ أنّك معتادة، قال سيمون بإعجاب. مع الموسيقى بمساعدة الـ«جين» أحسّ بأنّه مُغرَمٌ بها.

انخرطت في الضّحك: من حين إلى آخر كان مُثيراً لأحاسيسها.

«اطلُب الحساب، سيمون»

قام بذلك عكس مشيئته، إلى الحدّ الذي جعلها ترمُقه بانتباه. للمرّة الأولى، فيما بعد الظّهيرة ذاك. بالتّأكيد، لعلّه وقع في حُبِّها بهدوء، لعلّ لعبته الصّغيرة انقلبت عليه؟ اعتقدت فقط أنّه متعطّش لمغامرة؛ لعلّه أكثر بساطة، أكثر حساسيّة وأقلّ غروراً. من المُضحك أن يكون جِسمُه هو الذي شفع له عندَها. إنّها تجده رائعاً وفاتناً إلى درجة لا تُصدَّق.

إن كان ذلك صحيحاً فعلاً، فقد أخطأت برؤيته، عليها أن تعدل عن الاستمرار في ذلك. دعا النّادِل، أدار كأسه بين يديه دون أن ينبس بكلمة. صمت فجأة. وضعت يدها على يده.

«لا تؤاخذني، سيمون، أنا متعجّلة قليلاً. لا بدّ أنّ روجي في انتظاري الآن»

كان قد سألها في ذلك المساء الأوّل، «عند ريجين»: «هل تحبّين روجي؟» ماذا كانت ستجيب؟ لا تذكر. على أيّ حال يجب أن يعرف.

«آه، نعم، قال. روجي، الرّجل المتألّق»

توقّفت.

«أحبُّه»، قالت، وشعرت بأنّها تحمرُّ خجلاً. بدا لها صوتُها دراميّاً.

- وهوَ؟

- هو أيضاً.

- طبعاً. كلُّ شيء يسير كأفضل ما يكون في أفضل عالم.

- لا تلعَبْ معي لعبة التّشكيك، قالت بهدوء. ليس هذا من عُمرَك. ينبغي أن تكون في فترة السّذاجة، أنت...

أخذها من كتفها ورجّها بعنف.

«لا تسخري منّي، توقّفي حالاً عن مخاطبتي على هذا النّحو...»

«أنسى دائماً بأنّه رجل، فكّرتْ پول وهي تحاول التملّص من قبضته. كان يُشبه الرّجل في ذلك الحين، رجلاً يتعرّض إلى الإهانة. هو ليس ابن الخمس عشرة سنة، بل خمس وعشرون سنة؛ حقّاً!»

«لا أسخرُ منك، بل من تصرّفاتك، قالت بلطف. أنت تلعب...»

تركها، بدا مُتعباً.

- صحيح أنّي ألعب، قال، معكِ تقمّصتُ الشابَّ اللّامعَ المحامي والعاشق المجنون والطّفل المُدلّل والله وحده يعلم ماذا أيضاً. لكن منذ عرفتُكِ كلّ أدواري صارت لك. ألا تعتقدين أنّه الحبّ؟

- تعريف جميل، قالت مُبتسمة.

خيّم بينهما الصّمتُ. كانا متضايقين.

- كان بودّي لو لعبنا دور العشيقين الشّغوفيْنِ، قال.

- قلتُ لك إنّي أحبّ روجي.

- وأنا أحبّ أمّي، مُربّيتي العجوز وسيّارتي...

- لا أتمثّل العلاقة. قاطَعَته.

كان لديها الرّغبة في المغادرة. كيف لهذا المُتَعجرف الصّغير أن يفهم شيئاً من قصّتها، من قصّتهما؛ من السّنوات الخمسِ الحافلة باللذّة والشكّ، بالعاطفة والألم؟ لا أحد في استطاعته فصلها عن روجي. تبادَرَ إليها عرفان كبير لسيمون لأنّه كان سبباً في انتباهها إلى ذلك حتّى أنّها استندت على الطّاولة.

«تحبّين روجي لكنّك وحيدة، قال سيمون. أنتِ وحيدة يوم الأحد؛ تتناوَلين عشاءك وحدكِ وعلى الأرجح أنّكِ... أنّكِ تنامين وحدك أغلب الوقت. أنا، كنتُ سأنام ملاصقاً لكِ، آخذك بين ذراعَيّ طوال اللّيل وكنتُ سأقبّلكِ أثناء نومكِ. ما زال في وسعي أن أحبّ. أمّا هو، فلم يعد. تعرفين ذلك...

- لا يحقّ لك... قالت وهي تقف.

- يحقّ لي أن أتكلّم. يحقّ لي أن أقع في حبّك، أن أفتكّكِ منه إن استطعت.

كانت بعدُ في الخارج. نهض وعاود الجلوس، رأسُه بين يديه.

«أريدها، فكّر، أريدُها... أو أنّي سأتعذّب»

الفصل السابع

كانت عطلة نهاية الأسبوع رائعة. تلك الـ «ميسي» – اعترفت له بتغنّج بأنّ اسمها هو مارسيل، اسم لا يلائم ميلها الفنّي، لأسباب بديهيّة، لكن هذه الـ «ميسي» كانت عند وعدها. لم تكن تنهض بعد النّوم على عكس بعض المخلوقات المألوفة لدى روجي ممّن يتعيّن عليهنّ الخروج للكوكتيل وللغداء وللعشاء وللشّاي، إلخ؛ أعذار لا تُحصى ليُغيّرن ملابسهنّ. أمضيا يومين دون خروج من الغرفة، ما عدا مرّة واحدة، حيث، طبعاً، التقى الشابّ الظّريف ابنُ العزيزة «تيريزا». كان احتمال لقاء پول ضعيفاً جدّاً، لكن روجي ظلّ منزعجاً بصورة ما. حُجّة «ليل» جعلته فظّاً نوعاً ما. لا لأنّه تخيّل نفسه مُذنباً إزاء پول بسبب قلّة وفائه لها، لا لأنّه كذب عليها، بل لأنّ خرقه للوفاء لا يجدر أن يُدَوَّنَ لا في الزّمان ولا في المكان. «رأيتُ صديق ذلك المساء خاصّتك، كان يتناول الغداء في أودان». تخيّل پول وهي تتلقّى الخبر دون أن تتفوّه بكلمة، ربّما أشاحت ببصرها لحظة. پول تتألّم... كانت صورة قديمة آنذاك، قديمة ومُجتنبة إلى حدّ يدعو إلى الخجل؛ خجل أيضاً من المتعة التي سيصيبها في بيتها بعد قليل، بعد أن يكون قد أقلّ ميسي مارسيل. لكنّها لن تعرف ذلك أبداً. كان يفترض أن ترتاح هذين اليومين لأنّه يُجبرها على الخروج بشكل مُكَثّف؛ كان يفترض بها أن تلعب البريدج مع أصدقائها، الاعتناء بشقّتها، قراءة كتاب جديد... كان أحياناً يتساءل بشكل دؤوب عن جدول أوقات، أيّام أحد پول.

- أنتَ تقود جيّداً، نطق صوتٌ بجانبه وانتفض، رمق ميسي.

- تظنّين؟

- حتّى أنّك تقوم بكلّ شيء على أفضل وجه، تابعت وهي تغوص في مقعدها.

ودّ لو طلب منها أن تنسى؛ أن تنسى لحظة جسدها الضّئيل وأنّ نهمه مُشبَع. ندّت عنها ضحكة شهوانيّة، أو هكذا أرادت لها أن تكون. وأخذت يده ووضعتها على فخذها. كانت قاسية وحارّة تحت أصابعه وابتسم. كانت حمقاء وثرثارة وممثّلة، لشدّة ما كانت تحتقر الحبّ أفلحت أخيراً في جعله ناضجاً؛ وكانت طريقتها في إعدام كلّ رغبة لديه في إبداء عاطفة ناحيتها، كلّ ودّ وكلّ اهتمام تجعل منها أكثر إثارة. «شيء قذر لا يصلح للتّواصُل، متبجّح، همجي، أمارسُ معه الحبّ جيّداً». قهقه.

لم تسأله لماذا، بل امتدّت يدها إلى الرّاديو. تابع روجي حركتها بعينيه... ماذا قالت پول في ذلك المساء. فيما يتعلّق بالرّاديو بسهراتهما...؟ لم يعد يذكر. كان يُذاع كونشيرتو، قاطعته، ثمّ عادت إليه لأنّها لم تجد أفضل. كان الكونشيرتو ل«برامس». قال المذيع بصوت المُحنّك.

- عندما كنتُ في الثّامنة، كنتُ أتمنّى أن أصبح مايسترو، قال، وأنتِ؟

- أنا، أحببتُ مجال السّينما، قالت، وسأصل.

فكّر في أنّ ما تقوله مُحتَمَل وأنزلها أمام بيتها، تعلّقت ببذلته. غداً أخرج للغداء مع زوجي الأرعن. لكنّي أتمنّى رؤية عزيزي روجي، سريعاً، سريعاً جدّاً. سأتّصل حالما أجدُ ثانية.

ابتسم، مسروراً بدور العشيق الشابّ السرّي، خصوصاً أنّ له مع الرّجل الآخر العمر نفسه.

- وأنت، تابعتْ، قل تقدر؟ قيل لي إنّك لستَ حرّاً...

- أنا رجلٌ حرّ، قال بتعبير على وجهه. لن يتحدّث معها عن پول، على أيّ حال! مشت بمرحٍ على الرّصيف، حرّكت يدها خلف سيّارة البورش وغادر. لقد أزعجته جملتها الأخيرة. «أنا رجلٌ حرّ» تعني: «حرّ في ألّا أتحمّل أيّ مسؤوليّة» زاد من سرعته: يريد رؤية پول بأسرع ما يمكن؛ وحدها من يمكنها طمأنته، وستفعل.

يفترض أنّها عادت قبله بقليل لأنّها لا تزال تحمل معطفها، كانت شاحبة، وحين وصل ارتمت عليه وظلّت على كتفه دون حركة. أحاطها بذراعيه، حطّ خدّه على شعرها وانتظر حتّى تتكلّم. حسناً فعل بعودته باكراً لأنّها كانت في حاجة إليه، لا بدّ أنّ خطباً قد حصل معها، ولاعتقاده بأنّه يملك الحدس، فقد شعر بأنّ حنانه تجاهها قد تضاعف. كان يحميها. طبعاً، كانت قويّة ومُستقلّة وذكيّة لكن لعلّها كانت أنثى أكثر من أيّ امرأة أخرى عرفها. كان يُدركُ ذلك جيّداً. لهذا كان لا بدّ منه في حياتها. تحرّرت برفق من بين ذراعيه.

«هل كانت السّفرة جيّدة؟ كيف كانت «ليل»؟»

ألقى عليها نظرة. لا، بالتّأكيد، لم تكن تشكّ في شيء. لم تكن من أولئك النّساء اللّاتي ينصبن الفخاخ على هذا النّحو.

رفع حاجبيه.

- كيف ذلك، لكن أنت؟ ماذا بك؟

- لا شيء، قالت والتفتت.

لم يلحّ عليها. ستخبره لاحقاً.

- ماذا فعلت هنا؟

- بالأمس، اشتغلت. واليوم ذهبتُ إلى كونشيرتو في قاعة «پلايال».

- تحبّين برامس؟ قال مبتسماً.

أشاحت عنه بظهرها واستدارت بغتة إلى حدّ دفع به إلى التّراجُع خطوة.

- لم تسألني هذا السّؤال؟

- استمعتُ إلى جزء من الحفلة في الرّاديو، وأنا عائد.

- نعم، طبعاً، قالت. لقد أذيعت، صحيح... أدهشتني بالجانب المُحبّ للموسيقى الذي لا أعرفه عنك...

- لديك أيضاً. ماذا دهاكِ؟ رأيتك تلعب البريدج عند «داريت»، أو...

أضاءت مصباح الصّالون الصّغير ونزعت معطفها بإنهاك.

«الصّغير ڤان دان بيش دعاني إلى الكونشيرتو؛ لم يكن لديّ ما أفعله، ولا أذكر إن كنت أحبّ برامس أم لا... أَوَتظنّ؟... لا أذكر إن كنتُ أحبّ برامس أم لا...»

راحت تضحك برقّة في البداية ثمّ بقوّة متزايدة. اندلعت دوّامة في رأس روجي. سيمون ڤان دان بيش؟ ولم يتحدّث عن لقائهما... في «أودان»؟ ثمّ قبل ذلك كلّه، لِمَ الضّحك؟

- پول، قال، اهدئي. قبلاً، ماذا تفعلين مع هذا الصّعلوك؟

- أستمع إلى برامس، قالت بين ضحكتين.

- لكن، توقّفي عن الحديث عن برامس...

- الأمرُ متعلّق به...

أمسك كتفيها، كان الدّمع قد تجمّع في عينيها بسبب الضّحك.

- پول، قال، عزيزتي پول... ماذا روى لك ذاك الشّخص؟ قبل ذلك ماذا يريد منك؟

كان غاضباً، أحسّ بأنّه مُبعد ومخدوع.

- طبعاً ما دام لديه خمس وعشرون سنة، قال.

- بالنّسبة إليّ هذا عيب، قالت برقّة، وأخذها بين ذراعيه.

- پول، أنا أثق فيك كثيراً، إلى درجة لا توصف! مجرّد التّفكير في أنّ إمّعة مثل هذا يمكن أن يحوز على إعجابك ترعبني.

ضمّها إليه: فجأة تخيّل أنّ پول تمدّ يدها إلى شخص آخر، پول تُقبّل غيره، تهب حنانها، اهتمامها إلى شخص آخر. تألّم.

- الرّجال غيرُ واعين، فكّرت پول بمرارة. «لَدَيّ ثقة كبيرة فيك، إلى درجة من المحتمل معها أن أخونك، أن أتركك وحدك ولا يعقل أن يصحّ العكس. مستحيل، هذا رائع»

كان لطيفاً، لكن بلا قيمة، قالت. هذا كلّ شيء. أين تريد أن نتناول العشاء؟

الفصل الثامن

«سامحيني، كتب سيمون. لم أكن أملك الحقّ في أن أقول لك ما قلت. كنتُ غيوراً واعتقدت أنّ في إمكاننا أن نكون غيورين على ما لا نملك. على أيّ حال، أنا على يقين بأنّي قد سبّبتُ لك الإزعاج قبل هذا. ستتخلّصين منّي، سأذهب إلى الرّيف مع أستاذي العزيز لندرس قضيّة. سنسكن منزلاً قديماً على ملك أحد أصدقائه. أتخيّل الأسرة وكيف أنّ رائحة الـ«ڤرڤين» تفوح، إنّنا نشعل موقداً في كلّ غرفة، والعصافيرُ تشدو أمام نافذتي في الصّباح، لكنّي أعرف مرّة على الأقلّ بأنّه لا يمكنني لعب دور الشابّ الصّغير. ستنامين بجانبي، سأصدّق بأنّك في متناول يدي، مُضاءة باللّهيب؛ سأتوه عنك عشر مرّات. لا تظنّي – حتّى لو لم تكوني راغبة في رؤيتي – لا تظنّي بأنّي لا أحبّك. عزيزُك سيمون»

ارتعشت الرّسالة بين يدَيْ پول. انزلقت على الملاءة لتستقرّ فوق السجّاد. أراحت پول رأسها على المخدّة. أغمضت عينيها. دون شكّ، أكان يُحبُّها... كانت منهكة. في ذلك الصّباح، لقد نامت بشكل سيّئ. هل لذلك علاقة بالجملة الأخيرة التي سقطت من فم روجي وهي تسأله عن طريق العودة، جملة صغيرة لم تُحلّلها بادئ الأمر، لكنّه اصطدم بها وانخفض لها صوتُه تدريجيّاً إلى أن انتهى همساً.

«طبعاً، العودة دائماً بغيضة يوم الأحد... لكن في العمق، الطّريق السيّارة تكون دائماً سريعة حتّى وهي مكتظّة...» دون شكّ، لو أنّه لم يغيّر

من نبرة صوتِه لما لاحظت شيئاً. ولكانت بَدَلَ ذلك، تخيّلت، بردّة فعل لا إراديّة، طريقاً وسيّارة جديدة، ردّة الفعل الفظيعة هذه التي تطوّرت لديها منذ سنتَيْن، ولكانت مخيّلتها صوّرت لها طريقاً وسيّارة جديدة رائعة في اتّجاه «ليل». لكنّه توقّف، لم تنظر إليه، وكان عليها هي، بعد خمس عشرة ثانية أن تستأنِف الحوار، حوار اثنين يتحدّثان بهدوء. انتهى العشاء على الوتيرة نفسها، وبدا لپول أنّ التّعب والإحباط اللذين كانت تشعر بهما أكثر من كلّ غيرة أو فضول لن يتركاها في سلام أبداً. قبالتها لاح هذا الوجه المحبوب، المألوف. هذا الوجه الذي يبحث في ملامحها إن كانت قد تفطّنت إلى شيء ما، هذا الوجه الذي يبحث عن علامة ألم على وجهها كما لو كان جلّاداً لا يُحتَمَل. انتهى بها الأمر للتّفكير:

«لكن ألا يرى بأنّه يسبّب لي الألم كفاية؛ ألا يكون الأمر سيّان لديه؟» وبدا له أنّها لن تقدر على النّهوض من كرسيّها، أن تقطع المطعم بيسر، بالسّخاء الذي يتوقّعُه منها، ولا أن يتمنّى لها ليلة سعيدة على عتبة بابها. كانت تتمنّى لو أنّها أحبّت شيئاً آخر: لو أنّها رغبت في شتمِه، في سكب كأسِه على رأسِه، في العودة بمفردها، في أن تستعيد كرامتها، حظوتها، في أن تختلف عن فتيات إضاعة الوقت الاثنتي عشرة اللّاتي يواعدهنّ. تمنّت لو أنّها واحدة منهنّ. عرف دائماً كيف يقول لها ما الذي تمثّله بالنّسبة إليه وأنّه هكذا وأنّه لا يريد أن يُخفي عنها شيئاً. نعم، لقد كان نزيها. لكنّها كانت تتساءل ما إذا كانت النّزاهة، النّزاهة الممكنة الوحيدة في هذه الحياة المُستعصية، لا تقتضي أن يُحبّ المرء كفاية كي يجعل هدفه هو إسعاد الآخر. حتّى لو عدل عن تفاصيله الأثيرة لأجل حاجة الآخر.

ظلّت رسالة سيمون ملقاة على السجّاد وداستها پول وهي تنهض، التقطتها، أعادت قراءتها. ثمّ فتحت درج طاولتها وتناولت قلماً وورقة وكتبت ردّاً.

في نهاية المحاكمة، بقي سيمون في الصّالون وحده كارهاً الاختلاط

بالحشود التي كانت تهنّئ الأستاذ الكبير. كان المنزل كئيباً وبارداً، لقد تجمّد اللّيلة الماضية، وعبر النّافذة كان يرى منظراً ثابتاً، شجرتين عاريتين وعشباً مُصفَراً، حيث تتعفّن كَنَبَتان قصبيّتان ضحّى بهما للخريف بستانيٌّ غير مكترث. قرأ كتاباً إنجليزيّاً، قصّة غريبة عن امرأة تحوّلت إلى ثعلب. وكان من حين إلى آخر يضحك بصوت عالٍ وتتحرّك ساقاه. كان يعقد قدميه، ويُحرّرهما. تدريجيّاً تمكّن قلقُه الجسديّ من صلته بالكتاب إلى أن وقف، وضع الكتاب وخرج.

نزل حتّى وصل إلى بحيرة أسفل الحديقة، مُستنشقاً رائحة البرد، رائحة المساء ممزوجة، من بعيد، بنار أوراق ميّتة أمكنه تمييز دخانها خلف سياج نباتيّ. كان يُحبّ هذه الرّائحة الأخيرة أكثر من أيّ شيء آخر وتوقّف لحظة ليستنشقها جيّداً بعينيْنٍ مُغمَضتين. من حين إلى آخر كان هناك طائرٌ يُطلق صيحة مكتومة واكتمل الجمع، كلّ تلك الذّكريات مجتمعة خفّفت عنه وطأة ماضيه. مال على الماء الباهت، غمس يده فيه، تأمّل أصابعه النّحيفة التي جعلها الماء تبدو منحنية، عموديّة تقريباً مع راحة يده. لم يتحرّك، جمع قبضته داخل الماء، ببطء كما لو أنّه يحاول التقاط سمكة سحريّة. لم يرَ پول منذ سبعة أيّام، سبعة أيّام ونصف. كان يفترض أن تتلقّى رسالته، تهزّ كتفيها قليلاً، تخفيها كي لا يعثر عليها روجي فيسخر منها. لأنّها كانت طيّبة، يعرف ذلك جيّداً. كانت طيّبة وحسّاسة ومسكينة. كان في حاجة إليها. لكن كيف يجعلها تعلم؟

قبل هذا حاول في هذا البيت الحزين، ذات مساءٍ، أن يفكّر فيها طويلاً، بقوّة تجعلها تشعر بذلك. في باريس، (باريسِها) البعيدة، بل لقد نزل إلى المكتبة في بيجامة بحثاً عن كتاب حول التّخاطُر. عبثاً، طبعاً! كان ذلك صبيانيّاً، يعلمُ هذا، كان يبحث دائماً عن المخرج باستخدام حِيَل طفوليّة أو ضربة الحظّ. لكنّ پول هي شخص ينبغي عليه أن يستحقّها، لا يمكنه أن يُخفي أمراً كهذا عن نفسه. لن يتمكّن من غزوها بقوّة الجاذبيّة.

بالعكس، كان لديه الإحساسُ بأنّ جسمه يخدمه لديها. «أملك رأسَ حلّاق شابّ»، غمغم. توقّف الطّائر لحظة عن صيحاته المُزعجة.

صعِد بتأنٍّ إلى المنزل، استلقى على السجّاد مباشرة، حرّك حطباً في المدفأة. كان الأستاذ «فلوري» يوشك على العودة، مُتواضعاً، مغموراً بانتصاره السّاحق، لكن أكثر ثقة في نفسه من العادة. سيروي قضايا شهيرة أمام نزر من الرّيفيّين المنبهرين، الذين سيُحوّلون نظراتهم نحو الشابّ المُساعد المتربّص. «أنتَ محظوظ، صغيري سيمون»، سيهمِسُ له الأستاذ «فلوري» وعلى الأرجح وهو يشير عليك بالعجوز الأكبر سنّاً.

سافرا قبل ذلك معاً. لكنّ التهيّؤات المهووسة للمحامي الكبير لم تسمح لهما بالتقدّم أكثر في علاقتهما.

صدقت توقّعاته. إنّما فقط كان أكثر عشاءٍ بهجَةً في حياته؛ لم يتوقّف عن الحديث، قاطع كلام المحامي الكبير وأغوى جميع النّساء الحاضرات. لدى عودته، قدّم له الأستاذ «فلوري» رسالة آتية من شارع «كليبير» إلى قصر عدالة «رووان» Rouen. كانت من پول. أدخل يده إلى جيبه، أحسّ بها تحت أصابعه وابتسم فرحاً. وهو يتحدّث كان يُحاول تذكّر العبارات بدقّة، ويعيد ترتيبها في ذهنه متمهّلاً.

– صغيري سيمون – كانت دائماً تدعوه هكذا – رسالتك كانت حزينة جدّاً. لا أستحقّ كلّ هذا. حتّى أنّك أحرجتني. لم أعد أتبيّن جيّداً أين أنا» – وكتبت اسمه ثانية: «سيمون» – ثمّ أضافت هاتين الكلمتين السّحريّتين:

«عُد بسرعة»

كان سيعود فور انتهاء العشاء. سيقود بسرعة إلى باريس، سيمرّ أمام بيتها، لعلّه يراها.

عند الثّانية، كان أمام شقّتها، غير قادر على الحركة. بعد نصف ساعة،

توقّفت سيّارة أمامه، نزلت منها پول، وحيدة. لم يتحرّك، رآها تعبر الطّريق، أومأت إلى السيّارة المُغادرة. لم يقدر على الحركة. كانت پول. كان يُحبُّها وكان في استطاعته بعدُ أن ينصت إلى حبّه يناديها: «پول»، يلحق بها، يحدّثها؛ سمعه دون أن يبرح مكانه، مرعوباً، كانت روحُه الخاوية تتألّم.

الفصل التاسع

امتدّت بحيرة غابة «بولونْيْ» Bologne، متجمّدة، أمام ناظريهما، تحت شمس كئيبة؛ كان هناك، فقط، رياضي مجدّف واحد من هؤلاء الرّجال الذين نراهم كلّ يوم يحاولون الحفاظ على لياقة لا أحد يبدو مهتمّاً بها. أجسامٌ نكرة، تفعل ما في وسعها للتّذكير بالصّيف، كان مجدافُه يرفع دفقات ماء متألّقة، فضّية، ولا قيمة لها في هذا الشّتاء الحزين وبين تلك الأشجار المُسمّرة. تابعته پول بعينيها وهو يقاتل في قاع زورقه، بجبين مقطّب. سيقوم بدورة حول الجزيرة ثمّ سيعود مُتعَباً، فخوراً بنفسِه؛ وبدا لها الجانب الرّمزيّ لهذه الجولة اليوميّة العنيدة. كان سيمون صامتاً بجوارها. كان ينتظر. استدارت نحوه وابتسمت. رمقها دون أن يردّ لها الابتسامة. ليس ثمّة وجه للمقارنة بين الـ«پول» التي قطع مسافة لأجلها ليلة أمس، پول الموهوبة والعارية (يعرف جيّداً)، مهزومة في أعماقها كالطّريق الذي يتّخذه، والـ«پول» الهادئة، تلك التي بالكاد سرّتها رؤيته، والتي غالبت النّعاس على كرسيّ حديديّ، وسط ديكور مُستنزف. ملأته الخيبة. ظنّ، محاولاً تزييف خيبته، أنّه لم يحبُّها. الأيّام المحمومة الثّنائيّة في الرّيف، في هذا المنزل الحزين، كانت مثالاً للحماقات التي في إمكان مخيّلته أن تبتدعها. إلّا أنّه في آن، لم يكن قادراً على صدّ رغبته المؤلمة، دواره لمجرّد التّفكير في وضع هذا الرّأس المُنهك على مسند الكرسيّ، ممزّقاً رقبتها، وتقريب فمه من ذلك الفم الممتلئ، الهادئ،

والذي ما انفكّت منذ ساعتين لا تُسقِط منه سوى كلمات طمأنة ولطف، لا يدري ماذا يصنع بها. لقد كتبت له: «عُد بسرعة» وإلى جانب انتظاره لهذه الكلمات، ندم عن سعادته بتلقّيها، وعن غبطته الغبيّة، وعن ثقته. كان يُفضّل البقاء تعيساً لسبب جيّد مُحترَم على أن يكون سعيداً لسبب تافه. قال لها ذلك فحوّلت نظرها عن المُجدِّف وحدّقت فيه.

«صغيري سيمون، الجميع عاش ذلك. أردتُ القول إنّ زعمك طبيعيّ»

راحت تضحك. وصل كالمجنون إلى شارع «ماتينيون»، صباحاً، وجعلته، فوراً، يفهم أنّ الرّسالة لم تكن تعني شيئاً.

– ليس إلى هذه الدّرجة، قال، لستِ، أبداً، المرأة التي تكتب «عُد بسرعة» لكائن من كان.

– كنتُ وحيدة، قالت. وفي وضع مُزرٍ للغاية. لكن مع ذلك ما كان عليَّ البتّة أن أكتب لك «عُد بسرعة»، هذا صحيح!

قال ذلك رغم أنّها فكّرت في العكس تماماً. كان هنا وكانت سعيدة بذلك. كانت وحيدة. وحيدة جدّاً! كان روجي يعيش قصّة جديدة. (لمّحت له من بعيد) مع امرأة مهووسة بالسّينما؛ يبدو له الأمرُ مُخجلاً رغم أنّهما لم يخوضا في شأنها، لكن هذه الذّرائع كانت متنوّعة وتنوّعُها الكبير لم يكن يُغني الاكتفاءُ عنهُ شيئاً. تناولت العشاء مرّتين في ذلك الأسبوع. مرّتين فقط. في الواقع، لولا هذا الشابّ الذي بجوارها، هذا التّعيس بسببها، لكانت هي نفسها حزينة إلى حدّ لا يُطاق.

«تعالَيْ، قال، لنعد، أنتِ تتضايقين»

نهضت دون احتجاج. كانت لديها رغبة في دفعِه إلى الحدّ الأقصى وآخذت نفسها كما لو كانت جريمة. كان ذلك ارتداد أساها لا قسوة منها، إنّه عبث الحاجة إلى الانتقام ممّن لا يستحقُّه.

ركبا سيّارة سيمون الصّغيرة وبدرت منه ابتسامة مريرة وهو يستحضر ما الذي كان يأمل لهذا اللّقاء أن يكون: يده في يد پول.

كان يقود بيده اليُسرى بموهبة وبراعة. كان ذلك الوجهُ الجميلُ مائلاً ناحيته. مدّ يده نحوها دون أن يرى مسارها فاستقبلتها بين يديها. فكّرت: «ألا يمكنني أبداً، أبداً، القيام بحماقة؟» أوقف السيّارة؛ لم تُعلّق، نظر إلى يده، ثابتة بين يدي پول المفتوحتين قليلاً، المُستعدّتين لإفلات يده، لم يكن يطلب أكثر دون شكّ. وأسند رأسه إلى الخلف فجأة، مُتعباً إلى درجة كبيرة، خانعاً لفكرة الابتعاد عنها إلى الأبد. في تلك اللّحظة، كبُرَ ثلاثين سنة، خضع للحياة وبدا لپول أنّها تعرفه للمرّة الأولى.

بدا لها شبيهاً بها للمرّة الأولى. بهما (هي وروجي)، في غير ضعف، لأنّها اعتقدت دائماً أنّه كذلك ولا تتخيّل أحداً ليس كذلك. بل مُتحرّراً، مُجرّداً من كلّ ما من شأن شبابه، وسامته، وقلّة تجربته، أنْ يمنحه مظهراً لا يُحتَمَلُ في عينيها؛ كان دائماً في نظرها سجيناً: سجين خفّته وسهولة حياته. وها هو الآن يشيح ليس ناحيتها بل ناحية الأشجار بوجه رجل نصف ميّت، لم يعد يقاوم. في الوقت نفسه تذكّرت سيمون المبتهج، الحالم، الذي التقت به في ثوب نوم وانتابتها رغبة في إعادته إلى طبيعته الأولى، إلى فطرته، أن تطرده نهائيّاً، تاركة إيّاه يصارع حزناً عابراً، تاركة إيّاه لألف آنسة صغيرة مُكرّرة ومُتوقّعة. سيُعلّمُه الوقت أفضل منها وببطء أكبر. ترك يده الثّابتة في يدها، أحسّت نبضاً في أصابعها. والدّموع في عينيها فجأة، لم تدرِ ما إذا كانت تذرف دمعها على هذا الشابّ الحنون جدّاً، أم على حياتها الخاصّة الحزينة قليلاً، قرّبت اليد من فمها وقبّلتها.

لم يقل شيئاً، واستأنف الطّريق. لقد حصل أمرٌ ما بينهما. يعرفُ ذلك وكان سعيداً أكثر من الأمس. «رأته» أخيراً، ولو أنّه كان بالحُمقِ الذي يعتقد معه أنّ اللّقاء الأوّل بينهما لن يكون سوى ليلة حبّ لأطلقت سبيله إلى الأبد. كان يلزمه الكثير من العاطفة، الكثير من الصّبر ودون شكّ

الكثير مـن الوقت. وأحسّ بأنّه صبور، حنون، ولديه الحياة برمّتها أمامه. حتّـى أنّه فكّـر فيما لو جاءت ليلة الحبّ، فسـتكون البداية وليس التّتويج المُعتـاد الـذي يعرفه النّاس؛ سـتكون هنـاك أيّام ولياٍل بينهمـا، وربّما لن تنتهي بينهما. كان في الوقت نفسه يشتهيها إلى درجة لا توصف.

مكتبة
t.me/t_pdf

الفصل العاشر

هرمت السيّدة ڤان دان بيش. حائزة حتّى الآن - بسبب جسمها وما كان يُسمّى حتّى تاريخ زواجها ب«جيروم ڤان دان بيش» موهبة استمالة - على صداقات بين الرّجال أكثر من النّساء، لقد لاحظت مع ظهور علامات الشّيخوخة تفاقم وحدتها، الأمر الذي يجعلها فريسة لليأس ويجعلها تتعلّق بأوّل من يعترض سبيلها، عند أوّل لقاء. لقد وجدت في پول الرّفيق المثاليّ من خلال الأعمال التي بينهما. شقّة شارع «كليبير» كانت مقلوبة رأساً على عقب، على پول أن تُمضي فيها أيّاماً بأكملها أو على الأقلّ الكثير منها وستجد السيّدة ڤان دان بيش ألف عذر للإبقاء عليها. ثمّ إنّ پول، إضافة إلى شرودها الظّاهر للعيان، تبدو صديقة مقرّبة جدّاً من سيمون ورغم أنّ السيّدة ڤان دان بيش بحثت دون جدوى عن علامة تآمر بينهما إلّا أنّها لا تستطيع درء اهتمامها بها أو إلقاء نظرة عليها بين حين وآخر، تهيّؤات لا تجد صدى لدى پول لكنّها تضايق سيمون. هكذا وجدته ذات مساء، شاحباً ومُشوّشاً، تشابك معها فجأة وهدّدها - هي، أمّه! - أقصى ما يمكنها أن تتخيّل من أذى لو أنّها «أفسدت» كلّ شيء.

- تفسد ماذا؟ هلّا تركتني؟ هل نمت معها أم لا؟

- قلتُ لك لا.

- إذاً. إن كانت لا تفكّر في ذلك اجعلها تفعل، ليس لديها اثنتا عشرة

سنة. أنت تصطحبها إلى الحفلات والمعارض والله وحده يعلم أين... أتعتقد أنّ هذا يسلّيها؟ ساذج، أنتَ لا تفهم شيئاً...

لكنّ سيمون كان قد خرج. كان قد عاد منذ ثلاثة أسابيع ويعيش بفضل پول ولأجلها، من السّاعات القليلة التي تمنحه إيّاها، لم يكن يغادرها إلّا في آخر لحظة ماسكاً يدها ثانية إضافيّة، كالأبطال الرومانسيّين الذين طالما سخر منهم. قلقاً بشأن اليوم الذي تنهي فيه صالون أمّه فتقرّر الأخيرة أن تدعو پول للعشاء. أضافت بأنّها ستدعو أيضاً روجي رفيق پول الدّائم مع عشرة أشخاص آخرين. وافق روجي. كان راغباً في رؤية الغرّ الصّغير من قريب، هذا الذي باتت پول تتحدّث عنه بودّ لطالما طمأنه أكثر ممّا دفعه إلى الاحتراز. ثمّ إنّ شعوراً بالنّدم يساورُه إزاء پول لأنّه أهملها منذ شهر. إلّا أنّه كان مفتوناً ب«ميسي»، بحمقها، وجسمها، واللّقطات الفظيعة التي تخضعه إليها وغيرتها المرضيّة وأخيراً بشوقها غير المُتوقّع الذي تكنّه له والتي تلقي به على وجهه كلّ يوم بجرأة مثاليّة كانت تسحَرُه. كان لديه شعور يلازمه بأنّه يعيش في حمّام تركيّ، كان يُفكّر بغموض في أنّه الشّغف الخام الأخير الذي يمكنه أن يثيره في حياته فيستسلم، يُلغي پول – التي كانت تقول: «حسناً جدّاً عزيزي، إلى الغد» بصوتها النّاضج – قبل أن تعود إلى المخدع البشع حيث أقسمت «ميسي» دامعة العينين على أن تضحّي بمستقبلها لأجله لو كانت هذه هي رغبته. تأمّل نفسه بفضول، تساءل إلى أيّ حدّ يمكنه أن يتحمّل غباء هذه العلاقة، وأخذها بين ذراعيه، وبدأت تموء بِجُمَلٍ نصف حمقاء نصف همجيّة وجد فيها، وهي تهمس بها، إثارة شهوانيّة كما لم يعرف من قبلُ إلّا نادراً.

كان سيمون المتعلّق بپول، باحتشام، مناسباً لها، إذاً.

حالما ينتهي من «ميسي» سيعيد الأمور إلى مجاريها بل ويتزوّج من پول. لم يكن متأكّداً من شيء، ولا حتّى من نفسه. الأمر الوحيد الذي يثق فيه هو حبُّه العميق لپول، ومنذ سنوات، تعلّقه بها.

وصل متأخّراً قليلاً ومنذ النّظرة الأولى انتبه إلى أنّه الفتى الذي انضمّ إليهما في ذلك المساء البعيد حيثُ استاء حتّى الموت.

كانت پول تعتب عليه أحياناً لجانبه الانعزاليّ، حقّاً، كان خارج عمله لا يرى أحداً إلّا لغايات معيّنة أو مع پول وصديق واحد على أقصى تقدير. كان يعيش وحده، ولا يتحمّل بعض الاجتماعات الرّاقية الكثيرة في باريس، فجأة اجتاحه شعور بالرّغبة في إبداء الصّفاقة أو في المغادرة. كان هناك أناس تمّ اختيارهم بعناية، مشهورون في أوساطهم أو في الصّحافة، كانوا ودودين بالتّأكيد، وسيدور معهم الحديث عن المسرح حول العشاء، أو السّينما أو ما هو أفظع، عن الحبّ والعلاقات بين الرّجال والنّساء. إنّه الموضوع الذي كان يخشاه أكثر من غيره لأنّ لديه شعوراً بأنّه يجهل عنه كلّ شيء، أو على الأقلّ عاجزٌ عن صياغة المعلومات التي يعرفها في شأنه. حيّا الجميع بسحنة تحفّظ، كان جسمُه مشدوداً قليلاً، وكما في كلّ مرّة كان مُحافظاً على الانطباع بأنّه دون قصد خلق تيّار هواء بدخوله. كان انطباعاً نصف صحيح في الواقع، لأنّه كان دائماً يخلق تغييراً ولو كان ضئيلاً في البداية، في النّقاشات وفي عيون كثير من النّساء الجميلات. كانت پول ترتدي الفستان الذي يحبّه. الأسود، مكشوف الظّهر أكثر من غيره، وهو يميل عليها، ابتسم لها بعرفان، لأجل ما هي عليه: هي له، الوحيدة التي كان يريحه وجودها في هذا المكان. وأغمضت عينيها لحظة، متمنّية بيأس أن يأخذها في أحضانه. جلس بجانبها، عندئذ انتبه إلى سيمون جامداً في مكانه. فكّر في أنّه منزعج دون شكّ من وجوده فسحب ذراعه التي أحاط بها پول بشكل لا إرادي. استدارت، وساد فجأة، وسط ضوضاء الآخرين، صمتٌ ثلاثي بينهم، صمتٌ مشحونٌ بالشّوق من الجانبين، والذي لم تقطعه سوى إيماءة من سيمون عندما مال ليُشعل سيجارة پول. رمقها روجي، لاحظ القامة الطّويلة لسيمون، هيئته الجادة، الأنيقة أكثر من اللّزوم بقليل، وهي

تميل على الهيئة القاسية لپول، وتمكن منه ضحكٌ خالٍ من كلّ اللّياقة. كانا متحفّظين، حسّاسين، متأدّبين. قدّم لها ناراً، رفضت هي أن تمنحه جسمها، كلّ هذا بفوارق دقيقة قائلة: «شكراً، لا شكراً» كان هو من طينة أخرى، كانت في انتظاره عاهرة صغيرة مع ما يمكن أن تمنحه من لذّة عاديّة. بعدها، ليلة باريس، وألف لقاء؛ ثمّ عند الفجر، ينطلق العمل المضني، كان جلُّه يدويّاً، مع رجال مثله، ميّتين من شدّة التّعب، لقد جعل منهم مهنته. في الوقت نفسه كانت پول تقول: «شكراً»، بصوتها الهادئ، ولم يستطع منع نفسه من أخذها من يدها، ضغط عليها كما ليُذكّرها بأنّها له. كان يُحبّها. في وسع هذا الشابّ الصّغير أن يصطحبها إلى الحفلات والمتاحف دون لمسِها.

نهض، تناول كأس سكوتش من الطّبق، احتساه في جرعة واحدة وأحسّ بأنّه أفضل.

مرّ العشاء كما توقّع سيمون. تذمّر قليلاً، حاول الحديث ولم يستفق إلّا في النّهاية عندما سألته السيّدة ڤان دان بيش، برغبة حقيقيّة في تلقينه ذلك، إن كان يعرف مع من يُمارس فلان الحبّ؟ أجاب بأنّ هذا لا يهمّه بقدر ما يهمّه ماذا يأكل، وأنّ هذا لا يعني شيئاً في نظره وأنّه من الأفضل الاعتناء بطاولة الضّيوف لا بأسرّتهم، سيجلب لهم هذا إزعاجاً أقلّ. ضحكت پول لأنّه ضرب بذلك كلّ النّقاش الذي دار في الطّاولة عرض الحائط، ولم يقاوم سيمون رغبة في تقليدها. شرب روجي كثيراً، كان يتعثّر قليلاً عند النّهوض ولا يكاد يلحَظ المقعد الذي تشير إليه السيّدة ڤان دان بيش بضربات خفيفة من يدها.

«أمّي تطلبك»، قال سيمون.

كانا في مواجهة بعضهما بعضاً. حدّق فيه روجي وبصورة ضبابيّة بحث لديه عن ذقن رخو، أو فمٍ مُتدلٍّ دون جدوى، ما جعل مزاجه يتعكّر.

- وبول، لا بدّ أنّها تبحث عنك؟

- ذاهب، قال سيمون واستدار. أمسكه روجي من مرفقه. فجأة أصبح غاضباً. نظر إليه الفتى متفاجئاً.

- انتظر... أريد أن أطلب منك خدمة.

ظلّاً يتفحّصان بعضهما بعضاً، مُدرِكَيْن أنّه ليس هناك ما يُقال. لكنّ روجي تعجّب من حركته، وأحسّ سيمون بالاعتزاز إلى درجة أنّه ابتسم. فهم روجي فأفلته.

- أردتُ أن أطلب سيجاراً.

تبعه روجي بعينيه. ثمّ تقدّم من بول التي كانت تحدّث مجموعةً وأخذها من ذراعها. رافقته وسرعان ما سألته:

- ماذا قلت لسيمون؟

- طلبتُ سيجاراً. ماذا تخشَيْن؟

- لا أعرف، قالت بارتياح. كنتَ تبدو غاضباً؟

- لِمَ قد أكون غاضباً؟ لديه اثنتا عشرة سنة. أتظنّين بأنّي أغار منه؟

- لا، قالت، وخفضت عينيها.

- إن كنتُ أشعر بالغيرة فمن جارِك الذي على يسارك. على الأقلّ هو رجل.

تساءلت لحظة عمّن كان يتحدّث، لمّا فهمت، لم تستطع أن تقاوم ابتسامة. لم تلاحظ وجود هذا الشّخص أبداً. كان العشاء في عينيها مُشرقاً بسيمون، الذي كانت عيناه اللّامعتان كأضواء سيّارة، تسقط عليها كلّ دقيقتين، باحثاً عن عينيها لحظة إضافيّة. كانت تمنحه النّظرة التي يحلُم بها فيبتسم برقّة، قلقاً من ألّا تردّها إليه. كان أجمل وأكثر حيويّة من جارها الذي على يسارها راودها هاجس بأنّ روجي لا يعرف شيئاً مُطلقاً. اقترب سيمون من روجي وقدّم إليه علبة سيجار.

- شكراً، قال روجي (اختار واحداً بعناية)، أنتَ تعرف ما هو السّيجار الجيّد. إنّها متع مخصّصة لمن هم في سنّي.

- أترك لك العلبة، قال سيمون. إنّه يروّعني.

- يول ألم يزعجك الدّخان بعد؟ لا بأس، لم يعد أمامنا الكثير كي نغادر، قال ملتفتاً ناحية سيمون، عليَّ الاستيقاظ باكراً.

لم ينزعج سيمون من الـ«نحن». لأنّ هذا يعني ببساطة أنّه سيقلّها حتّى باب شقّتها ليذهب بعد ذلك إلى لقاء غرنوقته(*) الصّغيرة، «وسأكون أنا هنا من دونها». رمق پول وظنّ لوهلة أنّ الفكرة نفسها عبرت مُخيّلتها، همس:

- إن كانت پول لا تشعر بالتّعب... فبإمكاني أن أقلّها إلى بيتها لاحقاً.

التفت كلاهما ناحيتها معاً. ابتسمت لسيمون وقرّرت أنّه من الأفضل لها العودة لأنّ الوقت قد تأخّر.

لم يتبادلا في السيّارة الكلام، كانت پول تنتظر. لقد انتزعها روجي من أمسية أعجبتها. يجب أن يقدّم لها اعتذاراً أو مبرّراً. توقّف أمام بابها، ترك المحرّك يعمل... وسرعان ما فهمت بأنّه لا يملك شيئاً ليقوله لها وأنّه لن يصعد معها، أنّ كلّ هذه التصرّفات كانت، فقط، ردّة فعل من قبل مالك حذر. نزلت، همست:

«ليلة سعيدة»، وقطعت الطّريق. انطلق روجي بسرعة. كان لديه الإحساس بالذّنب.

لكن أمام بيتها، كانت سيّارة سيمون رابضة وكان سيمون في الدّاخل. ناداها وجاءت نحوه مذهولة.

«كيف يُعقَلُ أن تكون هنا؟ لا بدّ أنّك قُدتَ كمجنون. وأمسية أمّك؟

---

*- - غرنوقته: نسبة إلى طائر الغرنوق.

- «اركبي لحظة»، توسّل إليها.

كانا يهمسان في اللّيل كما لو كان في الإمكان سماعهما. ركبت السيّارة برشاقة، ولاحظت كيف أنّها اعتادت عليها. اعتادت النّظر إلى هذا الوجه المؤتمن أيضاً، هذا الذي قسمه ضوء الشّارع نصفين.

- لم تتضايقي كثيراً؟ قال.

- بالتّأكيد لا... أنا.

كان قريباً منها، قريباً جدّاً، فكّرت. لقد تأخّر الوقت على الحديث، ولم يكن عليه أن يتبعها. كان من الممكن أن يراه روجي، كلّ هذا جنون... قبّلت سيمون.

ثارت ريحٌ شتويّة في الشّوارع، مرّت بالسيّارة المفتوحة، لوّحت لشعرهما بينهما. غمرها سيمون بالقبل في وجهها؛ سحبت أنفاسها مرتبكة، رائحة هذا الرّجل الشابّ، نَفَسُه وهواء اللّيل البارد. رحلت دون كلمة.

استيقظت قليلاً عند الفجر وكما لو كان حلماً عاشت ثانية كتلة الشّعر السّوداء لسيمون، وقد امتزجت بشعرها بسبب ريح اللّيل العنيفة، بين وجهيهما كما لو كان حاجزاً حريريّاً، وبدا لها أنّها تحسّ بفمه الحارّ يخدّرها. عادت إلى النّوم مبتسمة.

الفصل الحادي عشر

مضت الآن عشرة أيّامٍ لم يرها خلالها. غداة تلك الأمسية المجنونة، الدّافئة، تلك التي قبّلته فيها، تلقّى منها كلمة تلتمس منه فيها بألّا يسعى إلى رؤيتها. «سألحق بك الأذى وأنا أكنّ لك ودّاً بلا حدود». لم يفهم بأنّ خوفها عليه أقلّ من خوفها على نفسها؛ لقد صدّق شفتيها ولم تنزعج حتّى، بحث، فقط، عن طريقة، فكرة تسمح له بمواصلة الحياة من دونها. لم يخطر له أنّ تحذيراً على غرار: «سأسبّب لك الألم، هذا خطير»، إلخ. هو حكاية محبطة على أيّ حال. كانت پول تجهل ذلك أيضاً. كانت خائفة، كانت، دون وعي منها، تنتظر مجيئه ليُجبرها على أن تحبّ. لم تعد قادرة. رتابة الشّتاء، استعراض الشّوارع الأبدي الذي تضطرّ إلى خوضه كلّ يوم، وحيدة، من بيتها إلى عملها، ذاك الهاتف الخائن، الذي كانت تندم في كلّ مرّة لأنّها فصلته لشدّة ما كان صوت روجي فيه غائباً ومخجلاً، ذكريات صيف ضائعة في نهاية الأمر؛ قادها كلّ هذا إلى سلبيّة مقيتة وإلى المطالبة بأيّ ثمن ب: «على شيء ما أن يحدث».

كان سيمون يشتغل. كان دقيقاً في مواعيده، عمليّاً وناجعاً. كان من حين إلى آخر يرفع رأسه، يحدّق في السيّدة «أليس» بنظرة ساهمة، ويمرر على شفتيه إصبعاً متردّداً...

پول في ذلك المساء الأخير! تلك الطّريقة المفاجئة والمتسلّطة تقريباً، التي وضعت بها فمها على فمه، رأسُها المُسند إلى الخلف ويداها

الممسكتين برفق بوجه سيمون الملاصق لوجهها، الريح... سعلت السيّدة «أليس»، متضايقة من تلك النّظرة وابتسم لها قليلاً.

كانت پول مرغمة، هذا كلّ ما في الأمر. لم يسعَ إلى لقائها إثر ذلك. هل أخطأ؟ استعاد القبلة عشر مرّات، عشرين مرّة، أدقّ وقائع الأسبوع الماضي. نزهتهما الأخيرة بالسيّارة. عشاء أمّه الجهنّمي... عادت إليه كلّ التّفاصيل، وكانت كلّ صورة وكلّ احتمال يزيدان من عذابه أكثر. مع ذلك مرّت الأيّام، فإمّا أن يربح الوقت أو أن يخسر حياته، لقد بات يراوح مكانه.

ذات مساءٍ، نزل مع صديق سُلّماً مظلماً يفضي إلى علبة ليليّة لا يعرفها. كان قد شرب كثيراً، طلبا مشروباً وتمكّن منهما الحزن مجدّداً. ثمّ جاءت امرأة سمراء تغنّي، كان لديها فم ورديّ كبير. فتحت الباب على ألف ذكرى، أشعلت لهيب عاطفة يائسة استسلما لفيضها معاً.

- أمنح سنتين من عمري لأحبّ أحدهم، قال صديق سيمون.

- أمّا أنا فأحبّ، قال سيمون. ولن تعرف أبداً أنّي أحبّها. أبداً.

صدّ عن نفسِه كلّ تعليق لكنّه في آن يشعر بأنّ الأمل لم يُفقَد تماماً. مُستحيل؛ ذاك الدّفق الغزير لأجل لا شيء! استضافا المُغنّية لتشرب معهما؛ كانت من «پيغال» Pigalle، لكنّها غنّت كما لو كانت وافدة من نيو-أورليانز، واهبة سيمون، المندهش، حياة ساحرة ودافئة، حافلة بالوجوه والأيادي الممدودة.

ظلّ يستمع إليها، وحيداً، حتّى وقت متأخّر، وعاد إلى بيته صاحياً عند الفجر.

في اليوم الموالي، عند السّادسة مساءً، كان سيمون بعدُ في انتظار پول أمام محلّها. كانت تمطر، أدخل يديه في جيوب معطفه، كان على نحو ما يؤاخذهما على ارتعاشهما. شعر بصورة غريبة أنّه خاوٍ وعديم

الفائدة. «إلَهي، فكّر، ألم أنقص من طيبتي معها إلى حدّ آلمها»، وندّت عنه تكشيرة امتعاض.

خرجت پول عند السّادسة والنّصف. كانت تحمل بذلة داكنة، وشاحاً رماديّاً-أزرق مثل عينيها، سحنة متعبة. تقدّم نحوها خطوة، ابتسمت له وأحسّ فجأة بأنّ الانشراح يغمره، وامتلأ راحة إلى درجة أنّه أغمض عينيه.

كان يُحبّها. مهما حصل، لو أنّ أمراً ما سيحصل له جرّاءها فلن يكون قد خسر شيئاً. رأت پول هذا الوجه الأعمى، توقّفت ويداها ممدودتان. لقد اشتاقت إليه، هذا صحيح، طيلة هذه الأيّام العشرة. حضوره الدّائم، إعجابُه بها، عناده، خلق لديها كلّ ذلك نوعاً من عادة دافئة، فكّرت، ما من سبب يجعلها تقطع معها. لكنّ الوجه الذي أبداه لم يكن من العادة في شيء. ولا الرّاحة التي تحتاج إليها امرأة في التّاسعة والثّلاثين. كان أمراً مغايراً. وبدا لها الرّصيف الرّماديّ والمارّة والسيّارات حولهما، ديكوراً رتيباً، جامداً، لا حقبة له.

تفرّسا في بعضهما بعضاً على مسافة مترين وقبل أن تغفو مجدّداً وسط الحقيقة الصّاخبة الكئيبة للشّارع، وفيما ظلّت هي متربّصة بمشاعرها خلسة، متيقّظة، على تخوم وعيها، تقدّم منها سيمون خطوة وأخذها من ذراعها.

قرّبها منه برقّة، دون أن يحتضنها، النَّفَسُ معلّق، لكنّه مأخوذ بسلام كبير. ضغط بخدّه على شعرها ولاحظ أمامه علامة مكتبة «كنوز الزّمن» متسائلاً بشكل غائم كم كنزاً تخبّئ هذه المكتبة وكم من النّفايات. واندهش من نفسه في الوقت نفسه كيف أنّه طرح على نفسه سؤالاً عبثيّاً هكذا في وقت مماثل. كان لديه إحساسٌ بأنّه حلّ مشكلة عويصة.

«سيمون، قالت پول، منذ متى وأنت هنا؟ أنت مبلّل بالكامل»

استنشقت رائحة بذلته «التويد»، عنقه، لم تشأ أن تتحرّك. أبدت لعودته راحةً لم تتوقّعها، راحة هي أقرب إلى الانعتاق.

«تعلمين، قال سيمون، لا يمكنني أن أعيش من دونك أبداً. أنا أغرق في العدم. لم أكن حتّى بائساً، كنتُ بلا نفسي. وأنتِ؟

- أنا، قالت پول، أوه! تدري، باريس ليست مُبهجة في هذا الوقت.

(حاولت إضفاء لون عاديّ للحوار)

- فحصتُ مجموعة جديدة، تكلّمَتْ امرأة الأعمال، التقيتُ أمريكيَّيْن. ربّما ينبغي أن أسافر إلى نيويورك....

فكّرت في آن واحد أنّه من غير المجدي الحديث بهذه النّبرة بين ذراعيْ شابّ واقف تحت المطر، غير أنّها لم تتحرّك. لم تقدر. حطّت شفتا سيمون على صدغيها، على شعرها، خدّها، كأنّها تنقّط جُملها. توقّفت عن الحديث، ضغطت بجبينها على كتفه.

«ترغبين في السّفر إلى نيويورك؟»، نطق فوقها صوت سيمون.

وهو يتكلّم كانت تحسُّ بشدقيه يتحرّكان لصق رأسِها.

أثار لديها ذلك رغبة في الضّحك، كتلميذة.

- الولايات المتّحدة، إنّها دون شكّ، تجربة ممتعة. أليس كذلك؟ لم أطأها.

- أنا أيضاً، قال سيمون. أمّي ترى أنّها مرعبة، لكنّها كانت دائماً تكره السّفر!

كان في وسعه أن يحدّثها ساعات عن أمّه، عن طعم السّفر، عن أمريكا وروسيا. راودته رغبة في أن يحدّثها عن مائة مكان مشترك، أن يحدّثها في مائة موضوع، هادئاً، بلا جهد. لم يعد يفكّر في إثارة إعجابها ولا في إدهاشها. كان قويّاً، كان يحسُّ بأنّه واثقٌ من نفسه وهشٌّ في آن

واحد. كان عليه أن يصطحبها إلى بيتها كي يسعه أن يقبّلها على أحسن وجه، لكنّه لا يجرؤ على إفلاتها.

«أحتاج وقتاً للتّفكير»، قالت پول.

لم تكن تعرف ما إذا كانت تقصده أم تقصد رحلتها. خشيت أيضاً أن ترفع رأسها، أن ترى هذا الوجه المراهق، ملاصقاً لوجهها، خائفة من أن تجد نفسها، پول، عاقلة وحازمة. خائفة من أن تحاكم نفسها.

- سيمون، قالت بصوت منخفض.

مال عليها وقبّلها على شفتيها برقّة.

أبقيا على عيونهما مفتوحة ولم يكن كلاهما يرى في الآخر سوى بقعة كبيرة متلألئة، مكتنزة بالانعكاس والظّلال، حدقات متّسعة، سائلة ومفزعة.

بعد يومين تناولا العشاء سويّاً.

لم تحتج پول سوى إلى بعض الجُمَلِ كي يفهم سيمون ماذا مثّلت لها الأيّام العشرة الماضية: لا مبالاة روجي، سخريته من سيمون، وحدتها. ربّما تمنّت پول لو أنّها أحسنت استغلال هذه الهدنة كي تستعيد روجي، أن تراه على الأقلّ، أن يعود تفاهمهما. لكنّها اصطدمت بطفل عصبيّ. جهودها النّاجعة رغم تواضعها: العشاء الذي يحبّذه، مع الفستان الذي يحبّه، مع الحوار الذي يفضّل الخوض فيه، كلّ هذه الوسائل، التي في مخازن النّساء، تبدو وصفات زهيدة، سافلة، لكنّها بين يدَيْ امرأة ذكيّة تغدو مؤثّرة أكثر من أيّ شيء آخر. لم تفلح في تغيير أيّ شيء. لم تشعر بالإهانة وهي تتوسّلها، لم تشعر حتّى بالخجل من استبدال جمل حارقة مثل: «روجي، أنا حزينة بسببك؛ روجي، يجب أن يحدث تغيير» بفخذ خروف. لم يكن ضرباً من ردّة الفعل المألوفة في الأعمال أن تصرّفت على هذا النّحو؛ ولا نوعاً من الخنوع المرير. لا، بل نوعاً من الساديّة

تجـاه «همـا»، تجاه ما كانا عليـه معاً. كما لو أنّ أحدهمـا، هو أو هي كان سيهبّ فجأة قائلاً: «طفح الكيل» وتوقّعت بتوتّر ردّة الفعل هذه من نفسها أكثر من روجي. لكن عبثاً. على الأرجح أنّ شيئاً ما قد مات.

بعد عشـرة أيّـام من الحسـاب والأمـل الضّائع خرجـت مهزومة من قبل سـيمون. قال سـيمون: «أنا سـعيد، أحبّـك»، ودون أن تكون كلماته مسـطّحة؛ تَأْتَأَ بها سـيمون في الهاتف؛ سـيمون الذي يحمل إليها شيئاً ما كامـلاً، أو على الأقـلّ النّصف الكامل لشـيء ما. كانت تعرف أنّ أشـياء كهـذه تقتضي أن يكونا اثنين، لكنّها أحسّـت بأنّها متعبة منذ وقت طويل، الأولى دائماً، وغالباً الوحيدة. لا معنى لأن نحبّ، قال لها سـيمون، وهو يتحدّث عن نفسه، يجب أن يكون هناك من يحبّنا. وبدا له الأمرُ شخصيّاً تمامـاً وخاصّـاً به وحـده. فقط، في ذروة هـذه القصّة التـي أوغلت فيها، تعجّبت كيف أنّها، بَدَلَ الإثارة والاندفاع الذي أدّى إلى علاقتها بروجي، لم تشعر سوى بتعبٍ كبير وعذب أوهن خطواتها.

كانـوا ينصحونها بتغيير الجوّ وكانت تفكّر بشـجن في أن تغيّر، فقط، الحبيب: كان ذلك أقلّ إزعاجاً، باريسيّاً أكثر ومألوفاً فوق ذلك... وباتت تشيح عن انعكاس صورتها في المرآة أو تغطّيه. إلّا حين رنّ سيمون، فقد لمحت ربطة عنقها الدّاكنة، وعينيها القلقتين شـماتة شخصيّتها، ارتباكها أيضاً. وكشخصٍ مدلّل كثيراً من الحياة يرث المزيد، كانت لديها رغبة في مشاركة سعادتها. السّعادة التي تهبها: «ها هو جسدي، حرارتي، رقّتي؛ لا أحتاج إليها؛ لكن ربّما بين يديك سأكتشف القليل من المذاقات الرّائعة» أمضى تلك اللّيلة على كتفها.

تخيّلـت اللّهجـة التي سـيقول بها النّـاس، أصدقاؤها: «هـل تعرفون پول؟» كانت خائفة من الثّرثارين أكثر من فارق السنّ بينها وبين سيمون، الـذي – تعـرف جيّداً – أنّ سـيمون مُشـار إليه، إنّـه الخجل مـا يعتريها. خجـل مـن الغبطة التي سـيروي بهـا النّاسُ قصّتهـا، ما الذي سـيضفونه

على يوميّاتها، نظراتها الجديدة للشبّان وأيّ طعم جديد للحياة، فيما لا تشعر في أعماقها سوى بأنّها مُسنّة ومنهكة تبحث، فقط، عمّن يواسيها؟ واستهجنت أن تمارَسَ عليها الهمجيّة وتكون محلّ إطراء في آن معاً، الأمر الذي لاحظته مائة مرّة لدى أشخاصَ آخرين. سيُقال عنها: «پول المسكينة» لأنّ روجي يخونها؛ أو «تلك المجنونة المتسيّبة»؛ حين انفصلت عن زوج وسيم وشابّ وملّ أنّبوها واشتكوها. لكن أبداً لم يُكِنَّ لها أحدهم مزيجاً من الرّغبة والحقد مثلما أشعَلَتْ هذه المرّة.

مكتبة
t.me/t_pdf

الفصل الثاني عشر

عكس ما توقّعت پول، لم يَنَمْ سيمون طيلة ليلتهما الأولى. اكتفى بضمّها إليه، كانت يده فوق طَيّة خصرها، مُسَمّراً بلا حركة، يصغي، فقط، إلى صوت أنفاسها ويُدَوْزِنَ عليه أنفاسه. «عليك أن تكون عاشقاً كبيراً أو قلقاً جدّاً كي تغلب النّوم»، فكّر بشكل غامض، هو الذي لم يتعوّد سوى على الوضع الثّاني. أحسّ بالاعتزاز وبأنّه مسؤول عن نوم پول أكثر من لهيبهما المُقدّس العفيف. هكذا، قضّيا ليلتهما جنباً إلى جنبٍ كلاهما كان يحرُسُ نوم الآخر المُزَيّف، منتبهاً وحنوناً، لا يجرؤان على التحرّك قيد أنملة.

كان سيمون سعيداً. أحسّ بأنّه أكثر مسؤوليّة إزاء پول التي كانت تفوقه بخمسة عشر سنة، والتي لم تكن في عينيه سوى عذراء في السّادسة عشرة من عمرها. بدا له ضرورياً أن يحرسها بعين لا تغفل كما لو كان يحميها مبكّراً من شرّ قد يُصيبها يوماً، محافظاً، دائماً، على افتتانه بموقفها المتعالي، مُحصّلاً من تجربة العناق انطباعاً بأنّها هديّة.

كان يسهر، كان يحرس جُبنَه، مهازله الماضية، خوفه، ضيقه، وضعفه. سيجعلها سعيدة، وسيكون بدوره سعيداً. كان يقول في نفسه بنوع من الذّهول بأنّه لم يقطع على نفسِه عهداً كهذا طيلة مغامراته السّابقة. وهكذا، في الصّباح، تظاهر كلاهما، الواحد تلو الآخر بالتّثاؤب والتمطّي. لكن أبداً معاً. حين كان سيمون يستند إلى مرفقه، كانت پول تغوص أكثر في الغطاء، متجنّبة نظراته، نظرة العلاقة الأولى، الأكثر بداهة وقدرة على اتّخاذ القرار من أيّ حركة أخرى، وعندما كان الصّبرُ يوشك على النّفاد

كانت هي التي تتحرّك، كان سيمون مغمض العينين، كان منتبهاً هو أيضاً، كاتماً النَّفَسَ كأنّه يخشى فقدان متعته اللّيليّة. أخيراً ضبطته.

رمقها بعينين نصف مغمضتين في الضّوء الضّعيف للنّهار، المُتسلّل عبر السّتائر وأدارت وجهها ناحيته. أحسّت بأنّها عجوز وقبيحة. حدّقت فيه بثبات كي يتطلّع إليها جيّداً، كي يُلغي، على الأقلّ، مسألة اليقظة المُتشكّكة. سيمون الذي كانت عيناه لا تزالان نصف مُغمَضتين، كان يبتسم، همس باسمها ودنا منها.

«سيمون»، قالت وتصلّبت. حاولت، مراراً، خلال تلك اللّيلة تحويل لقائهما إلى نزوة. وضع رأسَه على قلبها، قبّلها برقّة، على عرق ذراعها، على كتفها، على خدّها، وضمّها إليه. «حلمتُ بكِ، قال. لن أحلم إلّا بكِ» أحاطته بذراعيها.

أراد سيمون أن يقلّها إلى مقرّ عملها موضّحاً أنّه سيتركها في المنعطف، لو شاءت. أجابت، بأسى خفيف، بأنّها لا تدين بتبرير لأحد وخيّمَ بينهما صمتٌ قصير، قطعه سيمون قائلاً:

- ألا تخرجين قبل السّادسة؟ هل تتناولين الغداء معي؟

- ليس لَدَيّ متّسع من الوقت، قالت، سأتناول سندوتشاً في العمل.

- ماذا سأفعل إلى غاية السّادسة؟

نظرت إليه. أحسّت بالضّيق؛ هل كان في وسعها أن تقول له إنّه من غير الضّروري أن يلتئم لقاء بينهما عند السّادسة؟ من جهة أخرى، كان مجرّد التّفكير في أنّه سيكون أمام الباب، نافدَ الصّبر، في سيّارته الصّغيرة، كلّ مساء، يمنحها سعادة حقيقيّة... شخصاً ينتظرك كلّ مساء، شخصاً ما لا يهاتفك بصوت غائب عند الثّامنة، فقط، حين تكون لديه الرّغبة في ذلك... ابتسمت.

- «من قال لك إنّي غير مدعُوّة للعشاء هذا المساء؟»

توقّف سيمون الذي كان يقفل أزرار كمّ قميصه بصعوبة. قال في

لحظة: «لا شيء، في الواقع»، بصوت رتيب. فكّر في روجي، طبعاً! لم يكن يفكّر سوى في روجي، كان يرى أنّه سيأخذ منه متاعه؛ كان خائفاً. لكنّها تعرف بأنّ روجي لا يفكّر بها. بدا له كلّ ذلك مُقرفاً.

لتكن سخيّة على الأقلّ!

- «ليس لديّ عشاء هذا المساء، قالت. تعالَ أساعدك»

كانت جالسة على السّرير وركع أمامها، مادّاً يديه كما لو كانت أكمامه قيوداً، كان لديه معصم ولد صغير، ناعم ونحيف. انتاب پول انطباع بأنّها تعيد المشهد للمرّة الثانية. «كم هذا متكلّف»، فكّرت، لكنّها وضعت خدّها على شعر سيمون، ضاحكة قليلاً.

- وما الذي سأقوم به من الآن وحتّى السّادسة؟ قال سيمون بعناد.

- لا أدري... تذهبَ إلى عملك.

- لا أستطيع، قال، أنا سعيد للغاية.

- هذا لا يمنع من العمل!

- بلى، بالنّسبة إليّ بلى، ثمّ إنّي أعرف ماذا كنتُ سأفعل، سأتنزّه وأنا أفكّر فيك، ثمّ أتناول غدائي وحيداً وأنا أفكّر فيك، ثمّ سأنتظر السّادسة. لا أملك شيئاً من شابّ نشيط، تدرين.

- ماذا سيقول المحامي؟

- لا أدري، لِمَ تطلبين منّي أن أهدر وقتي لترتيب مستقبلي، ما دام حاضري وحده ما يهمّني، ويملؤني، أضاف مع تحيّة كبيرة.

هزّت پول كتفيها. لكنّ سيمون قام بما قاله بالضّبط، والأيّام الموالية أيضاً. كان يسير في باريس مُبتسماً لكلّ النّاس، يمرّ عشر مرّات أمام محلّ پول عند العاشرة، يقرأ كتاباً، يتوقّف أينما اتّفق، ليُسند رأسه إلى الخلف قليلاً للرّاحة، مغمض العينين. كانت هيئته تشبه السّائرين نياماً وهذا يجعل پول ترقّ أكثر وتجعل منه كائناً عزيزاً جديراً بركن دافئ في وجدانها. كان لديها انطباع بأنّها تمنح، وتعجّبت حين بدا لها أنّ ذلك بدأ يصبح ضروريّاً.

كان روجي مسافراً منذ عشرة أيّام في طقس رهيب، متنقّلاً من عشاء عمل إلى عشاء عمل، وارتسم إقليم الشّمال في نظره طريقاً زلقة لا تنتهي وديكوراً نكرة من المطاعم. كان يتّصل بباريس من حين إلى آخر، مُكوّناً رقمين في آن واحد، فيسمع شكوى «ميسي مارسيل» قبل أن يشكو أوضاعه إلى پول أو بعد ذلك. كان يحسّ بالإحباط والعجز؛ باتت حياته شبيهة ببرّية قاحلة. لقد تغيّر صوتُ پول، أصبح مُضطرباً وبعيداً؛ كان لديه رغبة في رؤيتها. لم يمرّ عليه أسبوعان من قبل دون أن يشتاق إليها. في استطاعته دائماً إبعاد مواعيده معها. في باريس، طبعاً، حيثُ كان يعرف يقيناً أنّها على استعداد لرؤيته، أنّها على ذمّته دائماً. لكن «ليل» تجعلها كالأيّام الأولى التي عرفها فيها حيث كان يعيش مُعلّقاً في حياتها، خائفاً من أن يصل إليها، كما هو الآن خائف من أن يخسرها. أخطرها بعودته في اليوم الأخير. ساد صمتٌ ثمّ سرعان ما تداركت: «يجب أن أراك»، بصوت حازم. لم يستفهم وضرب معها موعداً في اليوم الموالي.

دخل إلى باريس في اللّيل ووجد نفسه أمام شقّة پول عند الثّانية صباحاً. تردّد في الصّعود، لأوّل مرّة. لم يكن على ثقة في أن يجد وجهها المُشرق مرغماً نفسه على الهدوء الذي تقتضيه المفاجآت، عادة؛ كان خائفاً. انتظر عشر دقائقَ، مشمئزّاً من نفسه؛ أسعفته مخيّلته بأسباب واهية: «إنّها نائمة، فهي تعمل كثيراً»، إلخ. ثمّ رحل. أمام بيته، تردّد أيضاً، ثمّ استدار متّجهاً إلى «ميسي». كانت نائمة وأبدت له وجهاً منتفخاً: «خرجت متأخّراً مع أولئك المنتجين المحتومين... إنّها سعيدة جدّاً، حتّى أنّها كانت تحلمُ به قبل دخوله بقليل»، إلخ. نزع ملابسه سريعاً ونام رغم ضيقه. لم يكن يشتهيها للمرّة الأولى. عند الفجر، تعجّل، رتّب نفسه آليّاً، تسلّى قليلاً بقصصها وقرّر أنّ الأمور تسير على ما يُرام. أمضى الفترة الصباحيّة عندها، وغادرها قبل عشر دقائق من موعده مع پول.

الفصل الثالث عشر

«عليّ أن أقوم بالاتّصال به، قالت پول. بعد الغداء سيكون قد تأخّر الوقت»

نهض روجي حين غادرت پول الطّاولة وابتسمت له ابتسامة الاعتذار تلك التي لا يمكنها أن تمنع نفسها منها عندما تكون على وشك إجباره بمقتضى اللّياقة الاجتماعيّة أو القلبيّة على أن ينشغل لأجلها. فكّرت في ذلك باستياءٍ وهي تنزل السلّم الرّطب الذي يؤدّي إلى الهاتف. الأمور مختلفة مع سيمون، فقد كان دائماً في صلب الموضوع وكان دائماً مبتهجاً، جاهزاً ليهتمّ بها، كان يفتح لها الأبواب، يشعل سجائرها ويلبّي أصغر رغباتها التي كان يُخمّنها قبلها، أحياناً.

كان «عقد انتباه» وليس واجباً. في ذلك الصّباح، غادرته نصف نائمة، كانت المخدّة بين ذراعيها، خصلاتها السّوداء مُشوّشة، وتركت له كلمة: «أكلمّك عند منتصف النّهار»

لكن عند منتصف النّهار التقت روجي وفي الوقت الحاضر ها هي تباغت نفسها بصدد تركه وحيداً لتتّصل بشابّ مغرم وكسول. هل سيتفطّن؟ كان جبينه مجعّداً وكان مُغتمّاً بسبب الأيّام السيّئة. كان يبدو هرماً.

فتح سيمون الخطّ وراح يضحك حالما قالت:

- «آلو»، وضحكت أيضاً.

- استيقَظت؟

- منـذ الحادية عشـرة. إنّها الواحدة الآن. هاتفـتُ مصلحة البريد كي أسأل إن كان هناك عُطلٌ في الخطّ.

- لماذا؟

- كان يُفتَرَضُ أن تكلّميني عند منتصف النّهار. أين أنتِ؟

- عند «لويجيز». بدأتُ غدائي للتوّ.

- آه! جيّد. قال سيمون.

ساد بينهما الصّمت. أخيراً أضافت بجفاف:

- أتناول غدائي مع روجي.

- آه! حسناً...

- ألا تجيـد قول شـيء آخر، قالت. آه! حسـناً... سـأكون في المحلّ عند الثّانية والنّصف على أقصى تقدير. ماذا تفعل؟

- آخذ بعض الملابس من بيت أمّي، قال سـيمون بسـرعة. سـأعلّقها فـي مشـجب لديكِ ثمّ أذهـب للبحث عن الأكواريل الـذي أعجبكِ عند «ديسنوس» Desnos.

لحظة، انتابتها رغبة في الضّحك. إنّه سـيمون وطريقته في الجمع بين جملتين.

- لماذا؟ أتنوي جلب حجرة ملابسك إلى البيت عندي؟

كانـت تبحث عن حجـج لتثنيه. لكن مـاذا يمكن أن تكـون؟ لم يكن يفارقها وحتّى تلك الفترة لم توجّه له اللّوم أبداً...

- نعم، قال سيمون، ثمّة أناس كثيرون حولك... أريد أن أشتغل كلب حراسة بملابس نظيفة.

- سنتحدّث في هذا الشّأن قالت.

خالجها شعورٌ بأنّها تُجري مكالمتها منذ ساعة. فيما كان روجي وحيداً في الأعلى.

مؤكّد أنّه سيطرح عليها أسئلة ولن تتمكّن من الدّفاع عن نفسها أمامه، لسيطرة الإحساس بالذّنب عليها.

«أحبّك»، قال سيمون قبل أن تقفل الخطّ.

قبل الخروج، ألقت نظرة على مرآة الحجرة. كان قبالتها وجه شخص قال له أحدهم: «أحبّك»

احتسى روجي كوكتيلاً وتعجّبت پول، لعلمها أنّه لا يشرب قبل المساء.

- ألا تسير الأمور؟

- لماذا؟ آه! الويسكي؟ لا، أنا اليوم متعب.

- مضى وقت طويل لم أرك، قالت، ولأنّه أومأ موافقاً، فقد أحسّت بالدّمع يداعب مقلتيها. يوماً ما سيكون الحال: «مضى شهران لم نرَ خلالهما بعضنا بعضاً. ربّما ثلاثة؟»، ويقوم بحساب الأيّام بشكل طبيعيّ. روجي بحركاته المُضحكة ووجهه المنهك وتلك السّحنة الطّفوليّة رغم قوّته ونصف قسوته...

أشاحت برأسها.

كان يحمل بذلته الرّماديّة التي رأته يعلّقها، جديدة تقريباً، على كرسيّ في غرفتها، في بداية علاقتهما. كان مولعاً بنفسه آنذاك. لم يعد يهتمّ، الآن، بأناقته إلّا نادراً وفي الواقع كان أثقل من أن يكون أنيقاً.

- خمسة عشر يوماً، قالت بهدوء. أنت بخير؟

- نعم، أعني. هكذا.

توقّف. كان دون شكّ، ينتظر أن تقول له: «وأعمالك؟»

لكنّها لم تفعل. كان لا بدّ من أن تحدّثه عن سيمون؛ بعدئذ سيكون في إمكانه أن يبوح لها بما يشاء دون أن يبدو غبيّاً.

- «استمتعتِ؟»، قال.

توقّفت. نبض صدغاها، أحسّت أنّ قلبها قد توقّف.

سمعت نفسها تقول:

- نعم، التقيتُ سيمون مرّة أخرى. مرّات كثيرة.

- آه! قال روجي. ذاك الفتى الجذّاب؟ أما زال مجنوناً بكِ؟

أومأت برأسِها ببطء دون أن ترفع عينيها.

- «ما زال يسلّيك ذلك؟»، قال روجي.

رفعت رأسها. لكنّه لم ينظر في عينيها بدوره: كان منشغلاً بليمونه، فكّرتْ في أنّه فهم.

- نعم، قالت.

- أيسلّيكِ ذلك؟ أو أكثر؟

تفرّسا في بعضهما بعضاً. وضع روجي ملعقة فوق صحنه. تفحّصت بحنان تجاعيده الطّويلة التي حول فمه، وجهه الجامد وعينيه الزّرقاوين المُطوّقتَين بالأزرق الدّاكن.

- «لم أعد»، قالت.

عادت يد روجي إلى الملعقة، أمسك بها. فكّرت في أنّه لم يفلح أبداً في أكل اللّيمون بشكل صحيح.

بدا له كأنّ الوقت يستعجله ويأبى المرور في آن واحد.

- «أعتقد أنّه ليس لديّ ما أقوله»، قال روجي.

هنا، أدركت أنّه يتألّم. لو كان سعيداً لاستعاد رغبته في الحديث. لكن هنا، بدا كالمرجوم الذي ألقت عليه الحجر الأخير.

همست:

- كان أمامك كلّ شيء لتقوله.

- بنفسك قلتَ «كان».

- كي أوفّر عليك، روجي، إن قلت لك إنّ كلّ شيء مرتبط بك، ماذا كنت ستجيب؟

لم يجب. راح، فقط، يحدّق في منديل الطّاولة.

واصلت:

- كنت ستقول لي إنّك كنت مهووساً جدّاً بحرّيتك، بأنّك شديد الخوف من أن تفقدها، كي... أعني، كي تقوم بما يلزم من جهد لاستعادتي.

- قلت لك، لا أعرف شيئاً، قال روجي فجأة. مؤكّد أنّي أكره فكرة... هل هو موهوب على الأقلّ؟

- لا صلة للأمر بالموهبة على هذا النّحو، قالت. إنّه يحبّني.

لاحظت كيف أنّه أبدى راحة فحقدت عليه لحظة. طمأن نفسه: إنّها دون شكّ، نوبة عاطفيّة، سيظلّ هو الحبيب، الحقيقيّ، الذّكر.

- لكن يجدر القول، إنّه لا يتركني على الحياد من ناحية ما، أضافت.

- إنّها المرّة الأولى، فكّرت ساهمة، التي أسبّب له فيها الألم، بمحض إرادتي.

- أعترف لك، قال روجي، بأنّه لم يخطر لي أبداً - وأنا أدعوكِ إلى الغداء - أن أسمع عن لهوك مع شابّ صغير.

- تعتقد أنّ لهوك مع فتاة صغيرة في منأى عن أن يكون مثالاً هو أيضاً، قالت بول.

- هذا طبيعيّ أكثر، قال وهو يضغط على أسنانه.

ارتعشت پول. تناولت حقيبتها ونهضت.

- أفترض أنّك ستحدّثني عن عمري؟

- پول...

وقف بدوره وتعقّبها. تخطّى متاهة من الأبواب. كانت عيناها مليئتين بالدّمع.

لحق بها في سيّارتها. حاولت تشغيل المحرّك دون جدوى. أدخل يده من النّافذة وأدار وضعيّة التّشغيل التي نسيَتْها. كانت يدَ روجي... أدارت له وجهاً مُشوّشاً.

- پول... تعرفين جيّداً... كنتُ خسيساً، اغفري لي. تعلمين أنّي لا أفكّر فيك بهذه الطّريقة.

- أعلم، قالت. كنتُ سيئة أيضاً. يحسن بنا ألّا نلتقي لبعض الوقت.

ظلّ مُسمَّراً، غائباً. ابتسمت له.

- «إلى اللّقاء، عزيزي»

مال على البوّابة.

- «أنا متمسّك بك، پول»

غادرت مسرعة حتّى أنّه لم يتمكّن من رؤية الدّمع الذي يغشى عينيها. شغّلت مسّاح الزّجاج آليّاً وسرعان ما انتزعت منها حركتُها ضحكةَ أسف. كانت السّاعة الواحدة والنّصف. كان أمامها الوقت الكافي لترتاح في البيت قليلاً وتعيد مكياجها. تمنّت وخشيت في آن، أن يكون سيمون قد رحل. اصطدمت به في المدخل الكبير.

- «پول... ما الخطب؟»

كان يعيد الكلفة إلى حوارهما كلّما دخلت في نوبة اضطراب.

«لاحظ أنّي أبكي، إنّه يشفق عليَّ»، فكّرت وازداد دمعها انهماراً. لم

تُجب. أحاطها بذراعه في المصعد، مسح دمعها بشفتيه وتوسّل إليها بألّا تبكي ثانية، وأقسم بأن «يقتل ذلك الرّجل»، الأمر الذي أرغمها على الابتسام.

«لا بدّ أنّي فظيعة»، قالت وخالجها شعور بأنّها قرأت هذه الجملة ألف مرّة، أو أنّها سمعتها مائة مرّة في السّينما. جلست بعد ذلك على الكنبة مع سيمون وأمسكت يده.

- لا تسألني عن شيء، قالت.

- ليس اليوم. لكن يوماً ما، سأسألك عن كلّ شيء. قريباً جدّاً. لا أتحمّل أن يبكيك أحدهم. لا أتحمّل أن يفلح في ذلك، خصوصاً، صرخ غاضباً، وأنا، أنا، ألا أستطيعُ أن أبكِيَكِ أبداً...؟

رمقته: الرّجال وحوشٌ ضارية، دون شكّ.

- ألهذا الحدّ تسعى إلى ذلك؟

- أفضّل أن أتألّم معك، قال سيمون ودفن وجهه في عنق پول.

حين عادت في المساء، كان قد شرب ثلاثة أرباع قارورة سكوتش ولم يخرج. كان يعاني مشاكل شخصيّة. حدّثها بإسهاب عن أرق الوجود ونام على السّرير بينما خلعت پول حذاءها، بنصف حنان ونصف خوف.

كان روجي ينظر عبر النّافذة في انتظار الفجر. كانت واحدة من الضّيعات-الفنادق في جزيرة فرنسا حيث يكاد الرّيف يؤيّد الأفكار التي كان قد كوّنها عنه متعبو المدينة. بتلات هادئة، حقول خصبة، وعلامات إشهاريّة على امتداد الطّريق. لكن، هناك، في هذا الوقت الغريب، حيثُ يطلع النّهار. كان الرّيف الحقيقيّ البعيد الذي جاء يطوّق روجي برائحة مطر منعشة وثقيلة. استدار وقال:

«طقس جميل لنهاية أسبوع»، لكنّه فكّر: «هذا ساحر. أعشق هذا

الضّباب. إن كان في وسعي البقاء وحدي» تململت «ميسي» في فراشها الدّافئ.

«أغلق النّافذة، قالت. الطّقس بارد»

سحبت الغطاء إلى كتفيها، مُرَوّعة بعدُ، رغم الكسل اللّذيذ الذي لفّ جسمها، بفكرة اليوم الذي أمامها، في هذا المكان المجهول، مع روجي الصّامت والشّارد، وهذه الحقول المترامية الأطراف... انتابتها رغبة في الأنين.

«قلتُ لكَ أغلق النّافذة!»، قالت بحدّة.

كان قد أشعل سيجارة «غولواز»، الأولى في ذلك اليوم، وذاق المرارة الرّديئة واللّذيذة مع ذلك. الآن وقد انتُزِع من أحلامه الصّباحيّة ها هو يشعر بعدائيّة «ميسي» بنوع من نفاد الصّبر. «لتغضب، لتنهض بقفزة واحدة، لتركب أوّل حافلة إلى باريس!»، سأتجوّل في الحقول كامل اليوم مشياً على الأقدام. سأعثر على كلب ضالٍّ أتنزّه معه»، فقد كانت فكرة الوحدة ترعبه.

إلّا أنّ «ميسي» تردّدت بعد الأمر الثّاني. كان في إمكانها أن تنسى وتعود إلى النّوم، أو أن تعيد اللّقطة. كانت هناك جمل ما زالت تتراقص في ذهنها المُشوّش بالنّوم مثل: «أنا امرأة تشعر بالبرد. هو رجلٌ يتوجّب عليه غلق النّافذة»، وأشار عليها حدسها الصّباحي ألّا تستفزّ روجي، فاختارت الحلّ الوسط.

- يجب أن تغلق النّافذة وتطلب لنا الفطور حبيبي.

استدار روجي ناحيتها وقال كما اتّفق:

- حبيبي؟ ماذا يعني «حبيبي»؟

ضحكت. تابع:

- لا أدعوكِ إلى الضّحك. هل تعلمين، فقط، ماذا يعني «حبيبي»؟

هـل تحبّينني حقّاً؟ هل تعرفين ماذا يعني فعلُ «أحبَّ» أم أنّك تستعملينه بالسّماع؟

«لقـد اكتفيتُ فعلاً»، فكّر، مباغتاً نفسـه بكلماتـه الخاصّة؛ «حين أبدأ في الاهتمام بكلمات امرأة فهذا يعني أنّ النهاية وشيكة»

- «ماذا دهاك؟»، قالت ميسي.

رفعـت رأسـاً فوضويّاً من تحـت الغطاء، بدا له مضحـكاً، ونهدَين لم يعد يشتهيهما، بدت بذيئة. كانت فعلاً كذلك!

- الأحاسـيس مهمّة جدّاً، قال، أنا عابر بالنّسـبة إليـكِ. عابرٌ لائق. لا تنادِني «حبيبي»، خصوصاً في الصّباح؛ قد أقبل منك ذلك في اللّيل!

- لكن، روجي، احتجّت ميسي منتبهةً، أنا أحبّك.

- آه! لا، لا تهـذي أرجوكِ، صرخ بمزيج من القلق، لأنّه كان شـهماً، ومـن الارتياح لأنّ هذه الجملـة تحيل وضعهما إلى الحالة الكلاسـيكيّة المألوفة لدى رجل معتاد على الحبّ العشوائيّ.

ارتدى سـترته وبنطلونـه وخرج، نادماً على بذلتـه «التويد». لكن كان عليـه القيـام بدورة حـول السّـرير لتناولها وكانت ستفسـد تلـك الحركة خروجـه المباغـت. استنشـق الهواء البارد فـي الخارج، وأخـذه نوع من الدّوار.

سيكون عليه العودة إلى باريس دون البحث عن پول.

انزلقـت السـيّارة علـى الطّريـق الرّطـب. احتسـى قهوته فـي مدخل «أوتـوويْ» Auteuil، فـي باريس، الميّتة يوم الأحد. دفع حسـابه وانطلق كلِصّ.

جلبـت له «ميسـي» بذلته، فأرسـل السـكرتيرة لأخذها مـع باقة ورد. «لأنّي لا أعرف كيف أعيش»، فكّر بحزن.

سار قليلاً مُقطّب الحاجبين، ثمّ امتدّت يده إلى الرّاديو وتذكّر: «أحبَّ»، فكّر، «أحبَّ»، «كانت پول وأنا»، فقد طعم الأشياء. لقد خسِرها.

الفصل الرابع عشر

في الشقّة، بعد أسبوع، سبّبت رائحة التبغ الغثيان لپول. فتحت نافذة حجرة الجلوس، نادت سيمون ولم تتلقّ إجابة. خافت لحظة وتعجّبت من نفسِها. غادرت الصّالون ودخلت غرفتها. كان سيمون نائماً، مُمَدّداً على السّرير بباقة قميص مفتوحة. نادته ثانية لكنّه لم يتحرّك. عادت إلى الصّالون، فتحت الخزانة، لاحظت قارورة السكوتش وندّت عنها تكشيرة قرف. بحثت بعينيها عن الكأس، لمّا لم تجده اتّجهت إلى المطبخ. كان هناك كأسٌ مغسول حديثاً. ظلّت مُسمّرة لحظة، ثمّ نزعت عنها معطفها ببطء ووضعت أصباغها في الحمّام بهدوء وسرّحت شعرها بعناية. وضعت المشط بسرعة كأنّها تؤاخذ نفسها عن ضعف. كانت حقّاً تحاول إغواء سيمون!

عادت إلى غرفتها وحرّكته، أضاءت مصباح السّرير. تمطّى الشابّ، همس اسمَها وأشاح بوجهه إلى الحائط.

«سيمون»، قالت بلهجة قاسية.

عندما استدار، فسح المجال ليُلاحظَ منديل رأسها الذي دفن فيه وجهه قبل الاستسلام إلى النّوم. طالما هزلت من عبادته لها. لكن لم تعد لديها الرّغبة في الضّحك. بل أحسّت بغضب بارد. أدارتهُ إلى النّور. فتح عينيه، ابتسم وسرعان ما توقّف عن الابتسام.

- ماذا هناك؟

- لديّ ما أحدّثك به.

- أعلمه، قال وجلس على السّرير.

نهضت لأنّها كادت تزيح خصلة شعر سوداء سقطت على عينيه. اتّكأت على النّافذة.

- سيمون، لا يمكن أن يستمرّ هذا. إنّها المرّة الأخيرة التي أقول لك هذا. يجب أن تعود إلى العمل. أنت، فقط، تشرب خلسة.

- غسلتُ الكأس للتوّ. تكرهين الفوضى!

- أكره الفوضى والكذب والخمول، قالت بعنف. بدأت أشمئزّ منك.

نهض، أحسّت به خلفها، بوجه مُشوّش ولم تستدر نحوه قصداً.

- أحسّ، تماماً، بأنّك لا تتحمّلينني، بين أن تحبّ وبين أن تتوقّف عن الحبّ، عادة، تكون هناك خطوات سريعة، أليس كذلك؟

- الأمر لا يتعلّق بالأحاسيس، سيمون. بل بما تشرب، بعدم قيامك بشيء، بانحدارك نحو الغباء. قلتُ لك اعمَل. قلت لك هذا مائة مرّة. ستكون هذه الأخيرة.

- ماذا بعد؟

- بعدها لن تسعَني رؤيتك، قالت.

- يمكنك تركي هكذا، قال بجدّية...

- نعم.

التفتت إليه وفتحت فمها:

«اسمع، سيمون...»

كان جالساً على السّرير يُراقب يديه بتعبير غريب. رفعهما بتأنٍّ وأخفى بهما وجهه. ظلّت حازمة. لم يبكِ، ولم يتحرّك وبدا لپول أنّها لم تصادف شخصاً يائساً أكثر من هذا من قبل.

همست باسمه كما لو كانت تنتشله من خطر يُحدِقُ به دون علمه. ثمّ مالت عليه. راح يتأرجح برفق على حافّة السّرير، بوجه مخفيٍّ دائماً. ظنّت في البداية أنّه ثمل ومدّت نحوه يداً كي توقف تأرجحه، ثمّ حاولت إبعاد يديه، قاوم وانتهى بها الأمر إلى أن تقابله وتمسك بمعصميه.

«سيمون، انظُر إليَّ... سيمون، كُفَّ عن مهاتراتك»

سحبت يدها ونظر إليها. كانت قسمات وجهه ساكنة، ناعمة، كما لدى بعض التّماثيل، بنظرتها العمياء. مرّرت يدها أمام عينيه لا إراديّاً.

«ما بك سيمون؟ سيمون... أخبرني ما بكَ...»

انحنى أكثر، أسند رأسَه على كتف پول مُطلقاً تنهيدة، مثلما يكون حال إنسان مرهق للغاية.

- ما بي هو أنّكِ لا تحبّينني، قال براحة، وأنّ كلّ ما يمكنني فعلُه لن ينفع في شيء. وأنّه منذ البداية وأنا أعرف بأنّك ستطردينني، وأنّي أنتظر ذلك محنِيَّ الظّهر حيناً ومتمنّياً حيناً آخر...

هذا هو الأسوأ، أن أتمنّى ذلك، خصوصاً في اللّيل، قال بصوتٍ منخفض وأحسّ بأنّها احمرّت خجلاً. ثمّ جاء اليوم الذي تحقّق فيه ذلك، ومنذ ثمانية أيّام وأنا أشعر به، بقوّة، وكلّ ويسكي العالم لن يواسيني. أحسّ بأنّك تكرهينني بلطف. هذا كلّ شيء... پول، قال، ثمّ پول...

أحاطته بذراعيها وضمّته إليها، بعينين ممتلئتين بالدّموع. سمعت نفسها تتلفّظ بعبارات مطمئِنَة:

«سيمون، أنت مجنون... أنت طفل... عزيزي، حبيبي المسكين...»

قبّلت جبينه ووجنتيه، وفكّرت بوحشيّة، لحظة، بأنّها وصلت إلى مرحلة الأمومة. في آن، ثمّة جانب ما يلحّ عليها، ويدفعها إلى التلذّذ بشقائها القديم والمشترك بينها وبين سيمون المُعَذَّب.

- أنت متعب، قالت. لعبتَ دور الرّجل المُهمَل فصرتَ ضحيّة

نفسِك. أنا متمسّكة بك، سيمون، متمسّكة بك كثيراً. كنت، فقط، مشغولة بعملي خلال الفترة الأخيرة.

- فقط؟ ألا ترغبين في أن أرحل؟

- ليس اليوم، قالت مبتسمة. لكن أريدك أن تعمل.

- أفعلُ كلّ ما تريدين، قال. تمدّدي إلى جانبي پول، أنا خائف جدّاً! أحتاج إليك. قبّليني. لا تتحرّكي. أكره هذا النّوع المُعقّد من الفساتين... پول...

لم تتحرّك بعد ذلك. راح يتنفّس قريباً منها برفق، منهكاً، وهي تضع يدها حول عنقها، وساورها شعور ناحيته بالامتلاك، كان إحساس مُمَزّقاً، مؤلماً حتّى أنّها اعتقدت، لوهلة، أنّها تُحبُّه.

خرج إلى العمل في اليوم الموالي، تصالح مع رئيسه، اشتغل على بعض الملفّات، هاتف پول ستّ مرّات، اقترض المال من أمّه التي أبدت ارتياحاً وعاد إلى بيت پول عند الثّامنة والنّصف، بمظهر المُتعَب من شدّة العمل. آخر النّهار مرّ بحانة ولعب الـ (421)(*)، مُحتَفِلًا بانتصاره. وفكّر بينه وبين نفسه بأنّه عمَلٌ مملّ وبأنّه سيجد صعوبة فائقة في مَلء أوقات فراغه.

*- لعبة 421: لعبة فرنسيّة شعبيّة منتشرة في الحانات وتُلعب بين شخصين.

الفصل الخامس عشر

كان روجي وبول يمضيان، عادة، أسبوعاً في الجبل في شهر فيفري. جرى الاتّفاق بينهما على أنّه مهما كان وضعهما العاطفيّ (وحتّى ذلك الحين كان روجي، فقط، معنيّاً بذلك)، فإنّهما سيُرتّبان حياتهما كي يستمرّ العهد: أيّاماً شتويّة هادئة معاً. ذات صباح، اتّصل روجي ببول في مكتبها، أخبرها بأنّه سيمضي في عطلة بعشرة أيّام وسألها إن كانت ترغب في الانضمام إليه. خيّم الصّمتُ بينهما. تساءلت، لحظة، برعب، ما الذي حرّك في داخله هذه الدّعوة: حاجة غريزيّة إليها، أو ندم، أو رغبة جامحة في إبعادها عن سيمون. رجّحت السّبب الأوّل. لكنّها تعرف جيّداً، مهما قال لها، بأنّها لن تكون متأكّدة ممّا إذا كانت ستتألّم خلال الإقامة. ذكرى روجي في الجبل وهو يفيض حيويّة، نازلاً المسار الثّلجي كقذيفة، مرتطماً بها في الأخير، كان قلبُها يتمزّق.

- ماذا؟

- لا أظنّ أنّه سيكون ممكناً، روجي. سنتظاهر بأنّنا... أعني ألّا نفكّر في شيء آخر.

- فعلاً هو ذاك، ألّا نفكّر في شيء آخر، هذا ما دفعني إلى قضاء أيّام في الجبل. أؤكّد لك بأنّي قادرٌ على ذلك.

- آتي معك شرط أن... (كانت ستقول: «شرط أن تفكّر بي، بنا»، لكنّها صمتَتْ)... أقصد إن كنتَ فعلاً تشعر بأنّك في حاجة إلى مجيئي، لكنّك ستكون بخير من دوني أو مع... شخص آخر.

– حسناً، إن لم يخب ظنّي، فأنتِ لا ترغبين في مغادرة باريس في هذا الوقت؟

– لا بدّ أنّه يفكّر في سيمون، قالت في نفسها؛ لِمَ لا ينجح أحد في فصل الظّاهر عن الحقيقة؟ كانت في آنٍ تقول في نفسها، منذ شهر، بأنّ ظاهر سيمون بات حياتها اليوميّة. وربّما أحسّت بأنّها تدين لنفسِها بهذا الرّفض وأنّ شيئاً في داخلها هو الذي تصدّى لروجي.

«إن أردتَ...»، قالت.

ساد صمت قصير.

«لا تبدين بخير، هذه الأيّام، پول. أنتِ متعبة. إنْ لم تأتِ معي فقومي برحلة إلى مكان ما، أنتِ في حاجة إلى ذلك»

كان صوتُه حزيناً وحنوناً حتّى أنّ پول أحسّت بالدّمع يُغرق مُقلتيها. نعم، كانت في حاجة إليه، كانت في حاجة إلى حمايته الكاملة بَدَلَ أن يدعوها إلى قضاء عشرة أيّام في موسم التّخفيض. كان عليه أن يفهم بأنّ هناك حدوداً لكلّ شيء، حتّى للأنانيّة الذّكوريّة.

– سأذهب طبعاً، قالت، سنرسل إلى بعضنا بعضاً بطاقات بريديّة من قمّة إلى الأخرى.

أقفل الخطّ. أخيراً، لم يطلب أكثر من مساعدة وها هي ترفُضها. لقد حملت حبّاً جميلاً تجاهه حتّى ذلك الحين، أحسّت بارتباك، بأنّها مُحقّة؛ بأنّ من حقّها أن تكون مُتطلّبة وأن تتألّم بسبب ذلك، بل يجب أن تتألّم. لا ننسى أنّها امرأة محبوبة بجنون.

حتّى ذلك الوقت كانت تخرج مع سيمون إلى بعض المطاعم الصّغيرة في الحيّ، بمفردها دائماً. لكن لدى عودتها ذات مساء وجدته على عتبة الباب، في بذلة داكنة، وشعر مُصفّف بعناية كان يبدو في هيئة احتفاليّة. لاحظت وسامته مرّة أخرى، عينيه السّنوريّتين وفمه المرسوم

بشكل رائع وفكّرت بهزل بأنّ هذا الشابّ الذي يقضي اليوم بأسره في روب نوم ينتظرها، كان يملك جسم محارب قويّ وجلّاد قلوب.

- أيّ أناقة! قالت. ماذا يجري؟

- سنخرج، قال. سنتناول العشاء في مكان فاخر وسنرقص، لو أكلنا بيضاً هنا، فسأكون سعيداً أيضاً، لكنّي أرغب في الخروج.

نزع معطفها. لاحظت بأنّه كان غارقاً في العطر. وفي غرفتها، فوق سريرها، كان هناك فستان سهرة لبسته مرّتين في حياتها.

- إنّه الفستان الذي أفضّلُه، قال سيمون. هل تشربين معي كوكتيلاً؟

جهّز الكوكتيل، الذي تُحبُّه. جلست پول على السّرير، كانت قد أضاعت بوصلتها: لقد نزلت من الجبل لتجد نفسها في أمسية راقية.

- أنتِ سعيدة؟ لستِ متعبة، على الأقلّ؟ لو أردتِ، أن أنزع عنّي هذه البذلة الآن فسأفعل، نبقى في البيت لو أردتِ.

وضع ركبته على السّرير وشرع في نزع البذلة. اتّكأت عليه، أدخلت يدها تحت قميصه، أحسّت حرارة جلدِه تحت كفّها. كان حيّاً، حيّاً للغاية.

- فكرة ممتازة، قالت، أيُعجِبُك هذا الفستان؟ أبدو مجنونة داخله.

- أحبُّكِ عارية، قال، وهو الذي يُظهركِ عارية أكثر من غيره. لقد بحثتُ عنه طويلاً.

تناولت كأسها واحتسته. كانت ستعود إلى بيتها لتجد نفسها وحيدة، فتنام مع كتاب، حزينة قليلاً، كعادتها قبلَه، لكنّه هنا، يضحك سعيداً. كانت تضحك وإيّاه وألحَّ عليها بأن تعلّمه رقصة الـ«شارلستون»، أن يجعلها تكبر عشرين سنة، تعثّرت على السجّاد وهي ترقص، وسقطت بين ذراعيه مقطوعة الأنفاس وضمّها إليه. ضحكت من القلب، ناسية روجي تماماً، ناسية الثّلجَ والأسف، كانت صغيرة، وجميلة، دفعتهُ إلى الخارج، وضعت مكياجها بسرعة، لبست فستانها العاري، كان يطرق

نافد الصّبر. ذُهِلَ لمّا خرجت وأمطر كتفيها بالقُبَل. جعلها تحتسي كأساً آخر، هي التي لا تعرف كيف تشرب. كانت سعيدة. كانت سعادة سحريّة.

في الكاباريه، في طاولة مجاورة، تعرّفت إلى سيّدتين يكبرانها سنّاً، كان العمل يجمع بينهنّ أحياناً، أرسلتا إليها الابتسامات، كانت ابتسامات استغراب. حين أخذها سيمون إلى الرّقص سمعت إحداهنّ تقول: «كم عمرها الآن؟». استندت إلى سيمون. لقد أُفسِدَ كلُّ شيء. كان فستانها مُثيراً للسّخرية مقارنة بسنّها. كان سيمون مُطّلعاً ويعيش حياة غريبة أكثر من اللّازم. طلبت منه مرافقتها. لم يحتجَّ وعرفت أنّه سمِع ما سمِعَتْه.

نزعت عنها ملابِسَها. كان سيمون يتحدّث عن الأوركيسترا. ودّت لو أنّها طردته. تمدّدت في الظّلام بينما كان ينزع ملابِسَه.

لقد أخطأت بشرب الكوكتيلَيْن والشّمبانيا؛ في الغد ستكون قسماتُها مشدودة. كانت تشعر بحزن حتّى الإصابة بالدّوار.

دخل سيمون الغرفة، جلس على السّرير، وضع يداً على جبينها.

- «ليس اللّيلة، سيمون، أنا متعبة»

لم يردّ، بل ظلّ محافظاً على وضعيّته. رأت شبحه في الحمّام مطأطئ الرّأس كأنّه غارق في التّفكير.

- پول، قال أخيراً، يجب أن نتحدّث.

- لقد تأخّر الوقت. أشعر بالنّعاس. غداً.

- لا، قال، أريد التحدّث إليكِ الآن، وستسمعينني.

فتحت عينيها مندهشة من إصراره. إنّها المرّة الأولى التي يتسلّط فيها عليها.

- سمعتُ مثلكِ، تماماً، ما قالته تلك الجلود القديمة، خلفنا. لا أتحمّل أن يؤثّر فيك ذلك. هذا لا يليق بكِ. إنّه استسلام جارحٌ لي.

- لكن سيمون، أنت تَخلُق مأساةً من العدم...

- لا أخلق مأساة، بالعكس، أنا أحاول أن أجنّبك السّقوط فيها. ستخفينها عنّي بطبيعة الحال. لستُ طفلاً صغيراً، پول. أنا في وضع من يفهمك وفي إمكانه مساعدتك. أنا سعيد جدّاً معك، تعرفين هذا، لكنّ طموحي لا يقف عند هذا الحدّ: أريد أن تكوني أنتِ سعيدة معي. في الوقت الحاضر أنتِ متمسّكة بروجي كي تكوني سعيدة معي. لكن عليكِ أن تحرصي على اعتبار علاقتنا أمراً إيجابيّاً، أن تساعديني على البناء، لا تنظري لما يحدث بيننا كأنّه ضربة حظّ سعيدة. هذا كلّ شيء.

كان يتحدّث بوقار وبجهد ملحوظ وكانت تصغي إليه بذهول وبنوع من الأمل. اعتقدتْ بأنّه غيرُ واعٍ. لم يكن كذلك وآمن أنّ في وسعها البدء من جديد.

ربّما نجحت في ذلك على أيّ حال...؟

- لستُ مُغَفّلاً، لديّ خمسٌ وعشرون سنة، لم أعرفكِ من قبل ومؤكّدٌ أنّي لن أفعل مُستقبلاً. أنت المرأة، وخصوصاً الإنسان الذي أحتاج إليه. أعرف ذلك. إذا وافقتِ، أتزوّج بك غداً.

- لديَّ تسع وثلاثون سنة، قالت.

- الحياة ليست مجلّة نسائيّة ولا ركاماً من التّجارب القديمة، تفوقينني بأربع عشرة سنة وأحبّك وسأظلّ أحبّ وقتاً طويلاً. هذا كلّ ما في الأمر. ثمّ إنّي لا أحبّذ أن تنزلي بمُستواكِ إلى تلك الخِلْدان العجوزة، مثلاً، ولا إلى الرّأي العام.

- مُشكلتك ومُشكلتي هي روجي. ليس ثمّة مشكلةٌ أخرى.

- سيمون، اعذُرْني لأنّي... أعني لأنّي ظننتُ...

- لم يخطر لكِ أنّي قد أفكّر، هذا كلّ شيء. الآن افسَحي لي مكاناً بقربك.

انـدسّ بجانبهـا، قبّلها وأخذها بيـن ذراعيه. لم تحتَجَّ بسـبب التّعب. وانتـزع منها لذّة عنيفة لم يجعلها تعرفها حتّى ذلك الحين. داعب جبينها المُفصَّد بالعرق، بعد ذلك، جعل رأسـها على كتفه عكس العادة، سحب الغطاء فوقها بلطف.

- نامي، قال، سأهتمّ بكلّ شيء.

ابتسمت في الظّلام وألصقتْ شفتيها بكتفه، وتلقّى مداعباتها كأُولمَبيٍّ محترف. ظلّ متيقِّظاً، خائفاً وفخوراً بحزمه.

مكتبة
t.me/t_pdf

الفصل السادس عشر

في عيد الفصح، قضى سيمون أيّاماً في كتابة البطاقات، كانت إمّا مخفيّة وسط ملفّات رئيسه أو فوق سجّاد پول. بل لقد نظّم رحلتين إلى إيطاليا، ثلاثة إلى إسبانيا وكان متردّداً حتّى تلك اللّحظة في شأن الذّهاب إلى اليونان. كانت پول تستمع إليه دون كلمة: لم تكن تملك أكثر من عشرة أيّام وأحسّت بكثير من التّعب، حتّى في ركوب القطار. ودّت لو كان في إمكانها أن تقضي أيّاماً في الرّيف: الطّفولة، باختصار! لكنّها لم تجد الشّجاعة الكافية لتُخيّب سيمون. إنّه يرى نفسه مسافراً، كان يقفز من قاطرة إلى أخرى لمساعدة پول، أخذها إلى سيّارة مؤجّرة عشرة أيّام مُسبَقاً. لاح له كيف أنّه أخذها إلى أفضل نزل في المدينة، إلى غرفة كان قد أرسل إليها الزّهور عن طريق التلغرام، ناسياً أنّه لم يتعامل أبداً مع مراسلة ولا حافظ على تذكرة من قبل.

كان يحلُم، يواصل الحلم، لكنّ أحلامه جميعها كانت تصبّ في پول. ترتطم بها كنهرٍ هائج في بحرٍ هادئ. لم يسبق له أن أحسّ بالحرّية أكثر من تلك الأشهر التي كان يدخل فيها إلى مكتبه كلّ يوم، لقد عاشرَ الإنسان نفسه كلّ مساء، في الشقّة ذاتها، مُعَلَّقاً في الشّهوة ذاتها، بالهموم ذاتها، بالعذاب ذاته، لأنّ پول استمرّت في الهروب منه أحياناً، في تحويل عينيها عنه، في الابتسام بحياءٍ أمام عبارات شوقه. حافظت پول على صمتها كلّما جاء الحديث عن روجي. كان ينتابها، أحياناً، شعور

بأنّها تقاوم أمراً ما بشكل عبَثيّ، بإنهاك ودون هدف، لأنّ الوقت – يعلم ذلك جيّداً – الذي يمرُّ لا يجعله يربحُ شيئاً.

لم يكن معنيّاً بمحوِ ذكرى روجي، بل كان عليه قتل شيء ما هو روجي في پول، جذراً قاسياً، مؤلماً تحملُه في أعماقها ويحدث أن يتساءل أحياناً ما إذا كان هذا الدّوام، وهذا الألمُ هو الذي جعل منه عاشقاً وربّما هو الذي ما انفكّ يرعى حُبّه ويسقيه. لكنّه كان دائماً يقول في نفسه: «پول تنتظرني وسأضمّها»، فيبدو له أنّ روجي لم يوجد يوماً، أو أنّ پول تُحبّه، هو، سيمون، وأنّ كلّ شيء كان بسيطاً وطافحاً بالسّعادة. وكانت پول تُفضّله في حالته تلك، حين يفرِضُ تفاهمَهُما كأمر يجدُر القبول به. لقد اكتفت من تحفّظها. فقط، عندما تكون وحيدة، كانت تلوح لها فكرة أن يعيش روجي من دونها خطأً جسيماً. كانت تتساءل، برعب، كيف وصلوا إلى ما هم فيه الآن. و«هم»، «نحن»، كانت دائماً هي وروجي. كان سيمون هو «الآخر». إلّا أنّ روجي لم يكن يعرف عن ذلك شيئاً. حين تُتعِبُه حياتُه كان يأوي إليها للشّكوى، محاولاً استعادتها، دون ريب. ربّما أمكنه ذلك. حينئذٍ سيكون سيمون مجروحاً تماماً. ستجد نفسها وحيدة من جديد، في انتظار مكالمات قد لا تأتي وإهانات صغيرة مؤكّدة. ثارت ضدّ انهزاميّتها وانطباعها بأنّ ما جرى كان حتميّاً. في حياتها كان هناك أمرٌ حتميّ هو روجي.

لكن هذا لا يمنعها من العيش مع سيمون، من أن تتنهّد بين ذراعيه، ليلاً، من أن تضمّه إليها في حركة من حركاتها التي لا تبدرُ سوى عن عاشق كبير أو عن الأطفال، حركة تملُّك، خائفة من كلّ احتمال هشاشة من تلك التي ترافق التملّك، لم يكن هو نفسه قادراً على أن يقيس درجة عنفه. في تلك الأوقات كانت پول تلامس العجز، والشّوق اللّذيذ والفريد للحبّ لا للعجز، ثمّ كانت تلوم نفسها، تلوم روجي الذي لم يُجبِرها على العيش معه، روجي الذي لم يكن هناك. حين كان روجي يأخذها، كان

سيّدها، كانت غرضه، كان أكبر منها بقليل. كلّ شيء كان ملائماً لبعض القواعد الأخلاقيّة أو الجماليّة التي لم تكن، حتّى ذلك الحين، قد باغتت نفسها بصدد الاهتمام بها. أمّا سيمون فلم يكن سيّدها. كان قد تبنّى، بنوع من التكلّف غير الواعي والذي لم يفكّر فيه من قبل، بأنّه سيتسبّب في خسارته الخاصّة. إنّه الإدمان الذي جعله ينام على كتف صديقته، كما ليطلب حمايتها، وجعله يستيقظ عند الفجر ليجهّز لها الفطور، وجعله يطلب النّصيحة حول كلّ شيء، كانت تلك التصرّفات تؤثّر في پول لكنّها كانت تزعجها، في آن واحد، بشكل غامض، وتقلقها كأنّها إزاء أمر غير طبيعيّ. باتت تحترمه، فقد كان يعمل؛ أخذها مرّة إلى محاكمة، في «ڤرسايْ»، حيثُ لعبَ أمامها عرضاً مدهشاً لمُحام شابٍّ، ضاغطاً على يديه، مُبتسماً، بتواطُئ، مع الصّحافيّين، ليعود إلى پول: محور دورانه، قاطعاً عروضه الكلاميّة لأناسٍ مجهولين كي يلتفت إليها خلسة، ليتأكّد إن كانت تراقبه أم لا. لم يكن يتظاهر أمامها بعدم الاكتراث. وهي ترنو إليه، كانت تشحن نظراتها بالإعجاب والاهتمام. نظرات تميلُ إلى العاطفة والاعتزاز حالَما يشيح بظهره. كانت النّساء ينظرن إليه كثيراً، كان الشّعور الذي يغمُرُها رائعاً، أحدهم كان يعيش لأجلها. ولم تعد مسألة فارق السنّ مطروحة في علاقتهما؛ لم تعد تتساءل: «وبعد عشر سنوات، هل سيظلّ يحبُّني؟».

بعد عشر سنوات، ستكون إمّا وحدها أو مع روجي. شيء ما في داخلها يردّد ذلك دون هوادة. وكانت رقّتها تجاه سيمون تتضاعف في ظلّ خداعها لنفسها قائلة: «ضحيّتي، ضحيّتي العزيزة، صغيري سيمون!».

لقد ذاقت للمرّة الأولى اللّذة المرعبة لحبّ من نعذِّب، بصورة حتميّة.

تلك «الحتميّة» ونتائجها: كانت ترهقها منذ الآن الأسئلة التي

سيطرحها عليها سيمون، تلك التي سيكون من حقّه أن يطرحها عليها بصفته يتألّم: «لِمَ تُؤثرين روجي؟ فيمَ ذلك الأخرق الغائب أفضل من الحبّ العنيف الذي أمنحكِ إيّاه كلَّ يوم؟»

وأحسّت بالذّعر بعدُ، لمُجرّد التّفكير في أنّها ستضطرّ إلى تفسير روجي. لم تكن تقول: «هو»، بل «نحن»، لأنّها لا تهتدي أبداً إلى فصل حياتهما. كانت تجهل السّبب. ربّما لأنّ الجهود المؤلمة التي بذلتها منذ ستّ سنوات لأجل حبّهما، أصبحت غالية عليها أكثر من سعادتها. ربّما من باب الكبرياء، لم تكن تتحمّل فكرة أن تكون قد ضاعت جهودها سُدى. نفسُ الكبرياء في داخلها، ذاك الذي كان يتغذّى على الصّدمات، جعلها تختار التّضحية بروجي على أن تُعاني. أخيراً، لقد عرف دائماً كيف ينجو. وصار هذا الصّراع المُتشكّك هو الغاية التي لأجلها كانت تعيش. إلّا أنّها لم تكن مخلوقة للعراك؛ كانت تقول لنفسِها ذلك وهي تداعبُ عكسِيّاً شعرَ سيمون النّاعم، الحريريّ. كان في وسعها أن تدمج نفسها في الحياة كما فعلت بأصابعها داخل شعر سيمون؛ همست له بذلك. ظلّا هكذا في الظّلام ساعات طويلة قبل أن يخلدا إلى النّوم. كانا يتهامسان، يداً في اليد. خالجها شعور مخاتل بأنّها رفقة صديقة دراسة في الرّابعة عشرة من عمرها، في واحد من تلك المبيتات الشّبحيّة حيث الفتيات يتحدّثن بصوت منخفض عن الله أو الرّجال. كانت توشوش وكان سيمون المسرور بنصف الغموض ذاك، يتحدّث بصوتٍ منخفض بدوره.

- كيف كنتِ ستعيشين؟

- كنتُ سأظلّ مع «مارك» زوجي. كان لطيفاً في العمق وراقياً جدّاً. ثريّاً جدّاً أيضاً... أردتُ أن أجرّب...

حاولت أن تشرَحَ له كيف أنّ حياتها اتّخذت فجأة شكل حياة، بمجرّد

قـرار بسـيط منه، في الوقـت الذي كانـت فيه غارقـة في العالـم المعقّد، الصّعـب والمُهيـن في مهنتهـا النّسـائيّة. الشّـراءات، المتاعـب المادّية، الابتسـامات، الصّمت. كان سـيمون يُصغـي إليها، محـاولاً العثور على صلة بين حبّه وبين ما لاح له من ذكريات.

- ماذا بعد؟

- فكّـرتُ فـي أنّـي كنـتُ سـأعيش على هـذا النّحـو؛ كنتُ سـأخون «مـارك» آجـلاً أم عاجـلاً، لا أدري... لكـن، ربّما كنتُ سـأنجب طفلاً. وهكذا فقط...

صمتت. احتضنها سـيمون؛ كان يرغب في طفل منها؛ في كلّ شـيء. ضحكت، لَثَمَ عينيها، وتابعت:

«يختلف الأمر في العشرين. أذكرُ جيّداً، قرّرتُ أن أكون سعيدة»

نعم، تذكرُ جيّداً. كانت تسـيرُ في الشّوارع والشّطآن مدفوعة برغبتها؛ لـم تكن تتوقّف عن المسـير، عـن العثور على وجه، على فكرة: فريسـة. كانت إرادة السّـعادة تملأُ رأسـها، بعد أن حطّت علـى رأسِ ثلاثة أجيالَ قبلها. لم تكن هناك عقبات، لن يكون هناك عقبات تدعو إلى القلق. الآن لا هـمَّ لهـا في التّحصيل، بل فـي الحفاظ على ما لديهـا. أن تحافظ على مهنة ورجل، ذاتهما منذ أمد بعيد. نام سيمون ملاصِقاً لها، همستْ:

- حبيبي، أنت نائم...؟ أيقظته الكلمتان، نفى، ضمّها إليه في الظّلام، في عطرها، في حرارتهما الممتزجة، سعيداً بشكل سحريّ.

الفصل السابع عشر

كانت السّيجارة الثّلاثين، أحسَّ بذلك وهو يسحق العقب في المنفضة الملآنة. اقشعرّ بدنه من شدّة القرف. أضاء مصباح السّرير مرّة ثانية. كانت السّاعة الثّالثة صباحاً، لم يفلح في النّوم. فتح النّافذة بغتة ولفحه الهواء المتجمّد في وجهه، في عنقه، بعنف حتّى أنّه أغلق الزّجاج، اتّكأ كما ليُشاهد البرد. ترك الشّارع المُقفر ليُحوّل بصره نحو المرآة، وسرعان ما أبعد نظره. لم تَرُقْ له نفسه. تناول علبة الـ«غولواز» من المنضدة ووضع سيجارة بين شفتيه آليّاً. كان يكره أن تضيع نكهة التّبغ التي كانت بالنّسبة إليه جانباً كبيراً من لذّة الحياة في حركات آليّة لرجلٍ وحيد، لم يعد يحبّ طعم التّبغ. طبعاً، كان نادماً على پول، لكن هذا لا يكفي. ينبغي أن تكون الآن نائمة بين أحضان ذاك الفتى المُدلّل، لا بدّ أنّها نسيت كلّ شيء. هو، روجي، لم يعد أمامه سوى الخروج للبحث عن عاهرة وللشّرب. كما تفترض هي تماماً. كان يعترف بأنّها لم تحترمه يوماً. كانت دائماً تراه فظّاً، قاسياً، رغم أنّه منحها أفضل ما يمكنه أن يقدّم، كان الدّعامة الصّلبة. كانت النّساء هكذا دائماً: يبدين متطلّبات إلى أقصى حدّ، سخيّات جدّاً، يمنحن الثّقة العمياء ثمّ يختفين ذات يوم جميل لسبب تافه. لأنّ شيئاً لم يكن تافهاً في نظر پول مثل علاقة مع سيمون. لكن في هذا التّوقيت، هي بين ذراعَيْ ذلك الطّفل. لا بدّ أنّه مائلٌ على ذلك الوجه، على ذلك الجسم النّاعم، سابحاً في النّعيم، و... عاد إلى الغرفة فجأة. أشعل

سيجارته أخيراً. أخذ نفساً بشراهة غضب. ثمّ أفرغ المنفضة في الموقد. كان يفترضُ أن يشعل النّار.

كانت پول هي التي تهتمّ بذلك كلّما جاءت. كانت تجثو على ركبتيها أمام المدفأة، تحرسُ اضطرام النّار، مُحرّكة إيّاها بحركة من حركاتها البارعة الرّصينة، ثمّ تنهض، تتراجع قليلاً وسُرعان ما يتحوّل لون الغرفة إلى الورديّ، وتصبح عائمةً في ظلال مضطربة. كان يشتهي ممارسة الحبّ معها ويقول لها ذلك. لكن مضى زمنٌ طويل على هذا. منذ متى لم تأتِ پول؟ سنتان، ثلاث سنوات، ربّما؟ لقد اعتاد لقاءها في بيتها: هناك، الأمر أسهل بكثير، لأنّها ستكون في انتظاره. كان لا يزال يمسك بالمنفضة إلى أن تركها تسقط من بين يديه: تدحرجت على الأرض، سليمة. ودّ لو أنّ هذا الشّيء قد انكسر، بسبب وزنه، أن تكون هناك فرقعة، شظايا. لكنّ المنفضة لم تنكسر؛ لم تكن تنشطر سوى في الرّوايات والأفلام، كان يلزمه، لأجل ذلك، واحدة من تلك المنفضات التي في بيت پول، لا هذه المنفضة الجيّدة من «بريزونيك»(*) Prisunic. لم يكسر أقلّ من مائة غرض عند پول. كانت دائماً تضحك، في المرّة الأخيرة كان كأساً رائعاً من الكريستال، حيثُ يتّخذ فيه الويسكي لون الطّين. كان كلّ شيء ظريفاً في ذلك البيت الذي كان فيه السيّد والربّ.

كان كلّ شيء متناسقاً ولطيفاً. مع ذلك كان في كلّ مرّة يغادرُ فيها بيتها ليلاً، ينتابُه إحساسٌ بأنّه نجح في الهروب من تلك الأشياء. أمّا الآن فهو وحيدٌ في بيته. غاضباً دون فائدة، في مواجهة منفضة غير قابلة للكسر. عاد إلى النّوم، أطفأ النّور، لحظةً قبل النّوم اعترف لنفسه بأنّه تعيس. نام ويده فوق قلبه.

---

*- بريزونيك Prisunic: سلسلة محلّات فاخرة.

الفصل الثامن عشر

ذات مساءٍ، التقوا، صدفة، في مدخل أحد المطاعم. حضر ثلاثتهم؛ البالي الصّغير المتوهّج والغريب الذي بات مألوفاً ومنتشراً في باريس: أشارت من بعيد برأسها إلى الرّجلِ الذي تأوّهت وتنهّدت ونامت على كتفه؛ ردّ عليها ببرود ورمقه سيمون لحظة دون أن يضربه كما أراد. جلسوا في طاولتين متباعِدَتين نسبيّاً وطلبت اللّائحة دون أن ترفع عينيها. بالنّسبة إلى صاحب المطعم والزّبائن القلائل الذين يعرفون پول، كان المشهد عاديّاً للغاية. طلب سيمون شراباً بنبرة حاسمة ومن جهته سأل روجي رفيقته أيَّ كوكتيل تُفضّل. رفعت پول عينيها أخيراً، ابتسمت لسيمون، ونظرت في اتّجاه روجي. كانت تحبُّه، إنّها الحقيقة التي تبادرت إليها حالما رأته في البوّابة، بسحنته العنيدة: كانت لا تزال تُحبُّه، لقد خرجت من سبات عقيم. رمقها بدوره وحاول رسم ابتسامة سرعان ما تلاشت.

- ماذا تشربين؟ قال سيمون. نبيذاً أبيض؟

- لِمَ لا؟

- أمعنت في يديه على الطّاولة، الأواني الموضوعة بعناية. كان كُمّ سيمون لصقَ ذراعها العاري. شرب بسرعة. كان سيمون يتحدّث في غير حيويّته المعهودة. بدا كأنّه ينتظر أمراً ما منها أو من روجي. لكن ماذا؟ هل كان في إمكانها أن تقف وتقول: «سامحني»، هل تشقّ الطّاولات وتقول لروجي: «هذا يكفي، لنعد إلى البيت»؟

لا شيء من ذلك حدث في تلك الفترة، لا الذكيّ منها ولا العاطفيّ.

رقَصا بعد العشاء؛ رأت روجي يمسك بذراع امرأة سمراء، لمرّة على الأقلّ كان روجي يبلي جيّداً أمامها متأرجحاً بثقله المعهود. نهض سيمون، كان يرقص جيّداً، مُغمَض العينين قليلاً. كان مرناً ونحيفاً، كان يدندن واستسلمت إليه. في لحظة، ارتطم ذراعها العاري بيد روجي الموضوعة على ظهر المرأة السّمراء، فتحت عينيها، نظرا إلى بعضهما بعضاً، روجي، پول، كلّ منهما خلف كتف «الآخر»، كانت موسيقى رتيبة وهادئة دون إيقاع. تأمّلا بعضهما بعضاً على مسافة عشرة سنتيمترات، دون تعبير مُعيّن، دون ابتسامات، كالغرباء، كما يبدو، ثمّ بغتة ترك روجي ظهر المرأة، وامتدّت يده نحو ذراع پول، لمسها بأصابعه وارتسم على وجهه تعبير توسُّل، أغلقت عينيها دونه. التفت سيمون وضاعت النّظرات.

رفضت في تلك اللّيلة النّوم مع سيمون، متعلّلة بتعب لم تكن تشعر به. ظلّت في فراشها مفتوحة العينين وقتاً طويلاً. كانت تعرف ما الذي سيحدث، لم يكن هناك حلٌّ ممكن آخر، ندبت حظّها في الظّلام، بحنجرة مختنقة. استيقظت في عمق اللّيل، مرّت بالصّالون حيثُ ينام سيمون على الكنبة، رأت من خلال بصيص النّور الآتي من غرفتها جسمَ الشابّ مُمَدّداً، وحركة أنفاسه. رأت رأسَه غائصاً في الوسادة. رأت الأخدود بين فقرَتَيْ رقبته؛ كانت ترى شبابها نائماً. لكنّها هربت لمّا استدار متذمّراً من النّور. لم تجرؤ على التحدّث إليه.

في اليوم الموالي، كانت هناك رسالة من روجي في انتظارها على المكتب.

«يجب أن أراكِ، لا يمكن لهذا أن يستمرّ. هاتفيني».

اتّصلت به. اتّفقا على اللّقاء عند السّادسة مساءً. لكنّه مثل أمامها بعد عشر دقائق؛ عملاقاً في محلّ نسائيّ، فاقداً الاتّجاهات. سارعت إليه،

جعلته يدخُل حجرة مليئة بكراسي الخيزران، الذهبيّة اللّون: ديكور كابوسيّ! كان هو. تقدّم نحوها خطوة، وضع كلتا يديه على كتفيها. تلعثم قليلاً، إنّها علامة الانفعال الشّديد لديه.

- كنتُ جِدُّ بائساً، قال.

- أنا أيضاً، سمعت نفسها تقول. ارتمت عليه وانخرطت في البكاء، متضرّعة لسيمون في سرّها أن يغفر لها الكلمتين الأخيرتين.

دفن وجهه في شعرها. قال: «كفى، لا تبكي»، بصوت سخيف.

- حاولتُ، قالت بنبرة اعتذار... حاولت... حقّاً...

لكنّها فكّرت بأنّه ليست إليه تُوَجّه بقيّة الكلام بل إلى سيمون.

ارتبكت. على المرء دائماً أن ينتبه، لا يجوز أن يُقال الكلام كلُّه للشّخص نفسه. لم تتوقّف عن البكاء.

مكتبة
t.me/t_pdf

صمتَ.

- قُل شيئاً، همستْ.

- كنتُ وحيداً إلى حدٍّ لا يوصَف، قال، لقد فكّرت. اجلِسي هنا، خذي منديلي. سأشرح لك.

شرح لها. شرح لها ضرورة الاهتمام بالنّساء، بأنّه كان مُتهوّراً وأنّ كلّ ما حدث كان بسببه. لم يلُمها عمّا انجرّ عن خطئه. لن يخوضا في الموضوع.

قالت: «نعم، نعم، نعم، روجي» وانتابتها رغبة في البكاء. والانفجار ضحكاً. استنشقت الرّائحة المألوفة لجسمِه، تبغِه، وأحسّت بأنّها نجت. وتاهت.

بعد عشرة أيّام، كانت في بيتها وحيدة مع سيمون للمرّة الأخيرة.

«انسَ كلَّ هذا»، قالت.

قدمت له ربطَتي عنق، لم تنظر إليه. أحسّت بأنّها توشك على الانهيار من شدّة التّعب. مضى أكثر من ساعَتَين وهي تساعدُه على حزم أمتعته. متاع خفيف غيرُ مرتّب لمُغرم شابٍّ. حيثُما اتّجهت كانت تعثُر على ولّاعة لسيمون، كتب سيمون، أحذية سيمون، لم يقل شيئاً، تصرّف بنبل وتفهّم، الأمر الذي خنقه.

- يكفي، قال. يُمكنك وضع البقيّة عند البوّاب.

لم تُجب. ألقى نظرة حوله، محاولاً التّفكير: «آخر مرّة، آخر مرّة»، لكنّه لم ينجح. كان يرتعش بتوتّر.

- «لن أنسى»، قالت پول ورفعت عينيها صوبَه.

- «أنا أيضاً. إنّها حكاية أخرى»، قال، «حكاية أخرى».

وتأرجح في منتصف الطّريق، قبل أن يُلقي عليها نظرةً بوجه مُشَوّش. أخذته بين ذراعيها مرّة أخيرة، كما احتضنت سعادته من قبل. ولم تتمالك نفسَها من حسده على حزنِه العنيف، حزن جميل، عذاب جميل لن تنعم بمثله.

خرج سريعاً تاركاً أغراضه. لحقت به. مالت على الدّرابزين، صرخت باسمِه:

«سيمون، سيمون، وأضافت دون معرفة السّبب: سيمون أنا عجوز. أنا الآن عجوز...»

لكنّه لم يسمعها، ركض في السُلّم، بعينيْن مليئتين بالدّموع؛ كان يجري كشخصٍ سعيد، كانت لديهِ خمسٌ وعشرون سنة. أغلقت الباب بلطف. استندت عليه بظهرها.

رنّ الهاتف عند الثّامنة. قبل أن ترفَعَ السمّاعة كانت على دراية بما ستسمع:

«آسف، قال روجي، لَدَيَّ عشاء عمل. سآتي متأخّراً، هل...».

مكتبة | سُر مَن قرأ

telegram @t_pdf

لا، ليس قليلاً أن يقرأ المرء ثلاث روايات في السّنة فحسب، شرطَ أن تكون الرّوايات لفرنسواز ساغان. إنّها تحتجزك داخل الحكاية تاركة لك المجال خصبا لتبدي رأيك فتنصف وتأسف وتُضيف وتؤوّل كما تشاء.

مفارقة أخرى، خصمان آخران، حربٌ يخوضها الأبطال ضدّ أنفسهم، ضدّ ما هم عليه. خائفون، متنازلون عن الحياة مقابل الاحتماء منها. رواية تشدّك حتّى النّهاية، مُشوّقة وحافلة بالأفكار والأسئلة: هل للحرّية من وجود؟ لِمَ على الحبّ دائماً أن يتّخذ من الحرّية خصمه اللّدود؟ من هو هذا الآخر الذي يكون المرض تارة والتّشخيص تارة أخرى؟ أليس قاسياً أن تكبر امرأة في السنّ؟ فلا يعود من حقّها كما لو أنّها أصيبت بإعاقة- أن تختار السّعادة التي يمنحها الحبّ بل التي يمنحها الاختباء في المألوف؟ كما حدث لـ «پول» التي هربت من سجن «روجي» لكنّها سرعان ما اكتشفت أنّها بذلك قد ضحّت بحياتها التي تعرفها. وروجي المُحاصَر بحرّيته، المقيّد على الدّوام بضرورة ممارستها والتّذكير بها، ستمنحه الكاتبة القدر الذي يرضيه منها، سيفعل ما يشاء، متى شاء، لن يحول دون حرّية أحد، لن يفرض نفسه، لن يطالب أحداً بشيء. لن يعِدَ، لن يعاهد. سيحتاج فقط إلى پول، ستهزمه حاجته إليها. سنرى كأنّنا نشاهدُ فِيلماً كيف أنّ ما ذكرناه كان منذ البدء أوصاف الرّهينة. أمّا سيمون فهو الشابّ الوسيم الذي كان لابدّ أن يظهر في حياة پول كي تثور مرّة معه على روجي ومرّة على نفسها منه.

ولدت فرانسواز ساغان، اسمها الحقيقي فرانسواز كواراز، في كاجارك (لوت)، بدأت الكتابة سنة ١٩٥٤، عندما نشرت روايتها الأولى صباح الخير أيها الحزن. أثارت هذه الرواية فضيحة حقيقية بمعالجتها لموضوع الجنسانية النسائية بأسلوب وقح ولاذع. فازت في السنة نفسها بجائزة النقد، لتصبح شعاراً لجيل ما بعد الحرب ولتدفع بكاتبتها إلى مقدمة المشهد الأدبي.